الشيخ شبتاي وحكايات من حارة اليهود

موريس شماس (أبو فريد)

قصص

1979

Printed in Israel

الاصدار: ال-مشرق ب.م. للترجمة والطباعة والنشر

شفاعمرو - ص.ب 69، تلفون 720570 - 04

الاهداء

الى رائدي السلام ..

الرئيس محمد انور السادات رئيس جمهورية مصر العربية

والسيد مناحيم بيغن رئيس حكومة اسرائيل

اهدي هذه المجموعة القصصية ، تقديراً واعتزازاً ،

بما قدماه لشعبيهما .. وللانسانية .

موريس شماس

مقدمة

في مصر .. وفوق ارض الكنانه .. عاش اليهود منذ اقدم العصور . بل ان شعب اسرائيل لم ينصهر ويصبح امة لها مقوماتها ، الا فوق اديم مصر ، ولم تتبلور شخصيته كشعب له مميزاته ، الا على ضفتي نهر النيل .

ويوم ثار هذا الشعب ، ضد العبودية ، وخرج من مصر ، بقيادة نبيه موسى عليه السلام ، ينشد الحرية ، ويقيم دولته ، حمل معه كثيرا من سمات الحضارة المصرية ..

وفي اعقاب انهيار الدولة الاسرائيلية ، في عهد الامبراطور (نبوخذ نصر) .. فتحت مصر ابوابها لتستقبل قوافل اليهود ، النازحين من وطنهم .. واصبحت (الاسكندرية) في عصر من عصورها ، مركزا من مراكز الفكر اليهودي ..

وفي العصر الاسلامي ، عاشت في مصر ، طائفة يهودية ، سرعان ما نمت .. وترعرعت .. حتى اصبحت في منتصف القرن العشرين ، من ارقى الطوائف اليهودية في بلاد الشرق .

ولقد اعطت الطائفة اليهودية لمصر ، بقدر ما اخذت منها .. فساهمت بنصيبها ، في ميادين الفكر ، والعلم ، والاقتصاد ، وانجبت رجالا ، كان لهم شأن يذكر ، في تطور الثقافة المصرية . من هؤلاء نذكر ، يعقوب صنوع مؤسس المسرح في مصر .. وداود حسني ، من رواد

النهضة الموسيقية المصرية .. ويوسف قطاوي (باشا) الذي تولى وزارة المالية في عهد (الملك فؤاد) ، وكان له أثر كبير في دعم اسس الاقتصاد المصري ، في الفترة التي كانت مصر ، تخطو فيها أولى خطواتها في طريق الاستقلال السياسي ..

ومما لا شك فيه ، أن يهود مصر ، عاشوا بين الشعب المصري كجزء من هذا الشعب العريق . نهلوا من معين ثقافته .. وتطبعوا باخلاقه ، وتقاليده ..

ولعل (حارة اليهود) بالقاهرة .. كانت النموذج الصادق ، لتاقلم اليهود في البيئة المصرية الاصيلة ..

فاليهودي في حارة اليهود، كان صورة طبق الأصل من (ابن البلد) الذي يعيش في احياء مصر الشعبيه .. بكل ما يمتاز به من عزة نفس، وطيبة قلب .. واصالة ..

وعندما ترك اليهود مصر .. لم يبق في (حارة اليهود) سوى بضع عشرات من الشيوخ والمعوزين .. كفلتهم مصر بحمايتها .. ومنحتهم الأمن والرعاية ..

ويوم غادرت مصر عام 1951 ، حملت مع شهاداتي الدراسية ، ذكريات طفولتي في (حارة اليهود) .. بكل ما فيها من شخصيات واحداث ، عشتها وعاشت في قلبي كنفحة من عطر زكي ..

واليوم .. وبعد توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ، رأيت ان من واجب الوفاء نحو هذا البلد الكريم ونحو تاريخ يهود مصر .. ان اقدم للقارىء ، هذه المجموعة من القصص والشخصيات التي تصور زاوية واحدة من حياة ، حفلت بمختلف الجوانب والزوايا المثيرة ..

هي اذن (لبنة) صغيرة ، في نصب تذكاري ضخم ، من واجب الادباء والكتاب ، الذين عاصروا هذه الفترة ، أن يساهموا في بنائه ، باقلامهم .. تخليدا لذكرى طائفة يهودية كبيرة .. عاشت .. وازدهرت ، وغربت شمسها، فوق ارض الكنانه .

الشيخ شبتاي

في مكان ما في اعماق طفولته ، حدث معين لا يدري كنهه الا علام الغيوب ، جعل نمو عقله يتوقف عند سنوات الطفولة لا يتعداها ، بينما ظل جسده يكبر مع مرور الزمن حتى اصبح غلاما ، ثم شابا .. ثم كهلا يخطو نحو الستين من عمره ..

هكذا كان « شبتاي » يقف على عتبة الشيخوخة .. ولكنه ينظر الى الحياة بعيني طفل صغير ، لم يتجاوز الرابعة من عمره ..

وكأنما ارادت الطبيعة ، ان تكمل الصورة ، فمنحته وجه طفل بكل ما في وجوه الاطفال من ملامح وسمات .. كان وجهه مستديرا ، وعيناه واسعتين .. وأنفه صغيرا .. وخداه أملسين لا تنبت فيهما شعرة واحدة .. اما فمه ، فكان يفتر دائما عن ابتسامة كبيرة ، تحمل براءة الاطفال .. وعبثهم ..

وكانت ابتسامته ، لا تفارقه لحظة واحدة .. فهو يبتسم عندما يمشي ، ويبتسم عندما يجلس ، ويبتسم عندما يتناول طعامه .. ويبتسم وهو يغط في نومه ، حتى ليخيل اليك انه ولد والابتسامة على شفتيه ..

ولقد كان من الممكن ان تأنس اليه ، وان تحاول الحديث معه ، لولا تلك الابتسامة الغريبة ، التي تلتصق بوجهه ، فتشعرك بانك امام انسان غير طبيعي ، ليس من هذا العالم الذي نعيش فيه ، بل من عالم اخر تكتنفه الاسرار .. ويحيط به الغموض ..

وكان « شبتاي » لا يتكلم ابدا .. ولا ينطق بكلمة واحدة .. كان دائم الصمت ، لايعرف احد ان كان صمته « عمدا » ام ان لسانه عاجز ، لا يعي لغة الكلام ..

كانت لغته الوحيدة ، ان ينظر الى الناس .. ويبتسم . يبتسم لكل شيء .. للانسان ، وللحيوان ، وللجماد .. وابتسامته لا تتغير ولا تتبدل .. فهي دائما نفس الابتسامة ، التي تحمل سذاجة الاطفال وعبثهم .

وكان احيانا يمد يده ، فيمسح رؤوس بعض المارة في عطف ومودة ، شأن من يمنح بركته للناس ..

وكان الناس يتقبلون هذه اللمسات ، بشيء من التسامح ، اصبح مع مرور الايام .. تفاؤلا واستبشارا .. وكان أطفال الحي يخشونه في بداية الامر ، ثم اصبحوا يألفونه ، ويأنسون اليه ، بل لقد اصبح بعضهم يقترب منه عامدا ليحظى بهذه اللمسات المباركة .

كان « شبتاي » ، يرتدي دائما جلبابا واسعا من « البوبلين المقلم » ، ويضع على رأسه طاقية بيضاء ، لا يتخلى عنها صيفا أو شتاء ، وفي مقدمته « شبشب » من الجلد .. وكان يجلس طوال ساعات النهار فوق كرسي من الخشب ، على عتبة بيته القديم ، عند مدخل حارة « خميس العدس ».. يراقب الرائحين والغادين ، صامتا ، وعلى شفتيه نفس الابتسامة الساذجة ، التي سرعان ما تنتقل اليك اذا اطلت اليه النظر .

و « شبتاي » حينما يجلس فوق كرسيه .. فهو لا يتركه الا لقضاء حاجة ملحة ، او اذا ما دعته اخته «زهرة» لتناول الطعام .. وعندها يحمل كرسيه ويختفي داخل البيت ، ساعة او بضع ساعة ، ثم يعود حاملا كرسيه ، ليأخذ مجلسه مرة اخرى امام مدخل البيت ..

وكان « شبتاي » يعيش في هذا البيت مع اخته « زهرة » ، وهي « عانس » تكبره بثلاث سنوات .. ولم تكن « زهرة » على قدر من الجمال يجعلها محط انظار « العرسان » ، ففاتها قطار الزواج ، ووجدت نفسها مسؤولة عن رعاية أخيها ، والعناية بشؤون البيت ..

وكان « شبتاي » واخته « زهرة » ، يعيشان على الكفاف .. فلم يكن لهما مصدر رزق ، سوى ايراد هذا البيت ، الذي كان يتكون من ثلاث « شقق » اخرى ، والذي ورثاه عن جدهما « روفائيل » ..

وفي عصر يوم من ايام عيد « الفصح » ، جلس « شبتاي » في مكانه عند عتبة البيت .. يبتسم في وجوه الناس ، ويربت فوق رؤوس الاطفال كعادته ، عندما مر امام البيت ، ضابط شاب ، بصحبة زوجته ، في طريقهما الى حي « الخرنفش » لزيارة عائلة صديقه .. ووقف الضابط امام « شبتاي » ليستفسر منه عن الطريق المؤدي الى « الخرنفش » ..

وقام « شبتاي » من مقعده .. وتقدم الى زوجة الضابط ، ومسح على رأسها في رفق ولين ، ثم عاد الى مقعده ، والابتسامة الساذجة تملا وجهه ..

واستشاط الضابط غضبا ، واعتبر هذا التصرف الأحمق من جانب هذا الرجل الغريب ، مسا بكرامته ، فارتفعت يده بسرعة .. وهوت الصفعة فوق وجه « شبتاي » ، قوية .. عنيفة .. مزلزلة ..

وحفرت الأصابع ، اربع خطوط فوق الخد الاملس .. و « شبتاي » في مكانه لا يتأوه .. ولا يتحرك .. والابتسامة المعهودة ، لا تفارق شفتيه .. والنظرة العابثة تطل من عينيه . بل لقد خيل الى الضابط ان نظرة هذا الوقح ، قد زادت جرأة ، وان ابتسامته اصبحت اكثر سخرية .. فثارت ثائرته ، ورفع يده ليكيل المزيد من الصفعات .. ولكن قبل أن تهوي يده مرة اخرى على وجه « شبتاي » ، سمع صوتا يصرخ فيه قائلا :

– « اتق الله يا بيه .. انه انسان معتوه .. لا يدري ما يفعله ، وهو لا يستحق منك هذه القسوة » .

وتسمرت يد الضابط في الهواء .. وتراجع الى الوراء خطوة ، وهو يتفحص وجه « شبتاي » .. فطالعته تلك الابتسامة الغريبة ، التي تلتصق بوجهه ، فتشعر المرء بأنه امام انسان ليس من هذا العالم الذي نعيش فيه ..

وتراخت يد الضابط .. وتمتم ببضع كلمات كمن يعتذر ، ثم غادر المكان بصحبة زوجته ، و «شبتاي » يتابعهما بابتسامته الكبيرة ، التي تحمل براءة الاطفال ، وعبثهم .. وعلى وجهه اثار صفعة ، عكرت صفاء بشرته.

وعاد الضابط وزوجته الى بيتهما بعد انتهاء زيارتهما للعائلة الصديقة . وفي نفس المساء ، جلس الضابط الى مائدة العشاء. وعندما مد يده ليتناول شيئا من فوق المائدة ، شعر بأن يده تأبى ان تطاوعه او تستجيب لارادته ..

وظن الضابط ان ذراعه قد اصابها الخدر ، فراح يدلكها بيده اليسرى ، علها تعود الى حالتها الطبيعية ، ولكن عبثا ، فقد ظلت ذراعه اليمنى ، عاجزة تماما عن الحركة ، وكأنما اصابها شلل .. وأوى الضابط في تلك الليلة الى فراشه ، والافكار السوداء تقلقه ، وتطرد النوم عن عينيه ..

وما ان أشرقت شمس اليوم التالي .. حتى أسرع الى الطبيب يستشيره .. فأكد له ان ذراعه سليمة ، وأن « كشف الأشعة » لا يدل على وجود اي مرض او اصابة عضوية .. ورغم ذلك .. فلم يستطع الضابط ان يحرك ذراعه ، وظل شعوره بالعجز أقوى من ان تمحوه كلمة من طبيب ..

ومضى اسبوعان ، ولم يتغير الوضع ، فالذراع كما هي لا تتحرك .. والشعور بالعجز يكبر مع مرور الايام .. حتى اصبح يأسا .

وحار الاطباء في امر الرجل .. ونصحه بعض اصدقائه باللجوء الى طبيب للامراض النفسية والعصبية فلم يتردد .. ولكن الطب وقف عاجزا .. تماما كذراعه !!

وجاءته والدته يوما بشيخ من « اولياء الله » يصنع « الاحجبة » ويقرأ التعاويذ .. ويأتي بالمعجزات .. وكاد الضابط ان يثور في وجه والدته ، متهما اياها بالسذاجة والجهل ، لولا ان هيئة الرجل ، وابتسامته الطفولية العابثة ، ذكرته بابتسامة رآها على وجه « شبتاي » في حارة اليهود ..

واستعاد في ذاكرته ما حدث هناك ، قبل بضعة اسابيع وتذكر الصفعة .. وخيل اليه انه يسمع دويها يطن في اذنيه ، ورأى وجه « شبتاي » بابتسامته الساذجة الطيبة .. وبشرته الناعمة التي حفرت فيها الاصابع اربعة خطوط حمراء ..

واسرع الضابط بمغادرة البيت ، واستقل سيارة « تاكسي » انطلقت به الى حارة خميس العدس .. وامام بيت « شبتاي » وقفت السيارة .. وكان « شبتاي » جالسا كعادته عند عتبة البيت ، ينظر الى الناس ويبتسم .. يبتسم لكل شيء ، للانسان ، وللحيوان ، وللجماد ..

وتقدم الضابط من « شبتاي » .. وقال يوجه اليه الحديث بصوت يفيض بالندم :

– « اصفح عني ياشيخ « شبتاي » .. لم اكن اعلم انك من اولياء الله الصالحين .. ظننت بك سوءا ، فاسات اليك فاغفر لي .. يغفر لك الله » ..

وساد الصمت لحظة .. ومد « شبتاي » يده ، يمسح بها على راس الضابط في رفق ، والابتسامة تملأ وجهه .. وفي عينيه بريق غريب !!

وترقرقت الدموع في عيني الضابط ، وامسك بيد « شبتاي » يقبلها وهو يقول :

« انت اذن قد صفحت عني يا شيخ « شبتاي » .. امد الله في عمرك .. »

وفجأة شعر الضابط بانه يمسك يد « الشيخ شبتاي» بيده اليمنى .. لقد تحركت اليد المشلولة ..

وحدثت المعجزة !!

.. ومنذ ذلك اليوم ، والناس في الحي ، يطلقون على « شبتاي » لقب « الشيخ » .. وينادونه باسم « الشيخ شبتاي » .

القسمة (فيكتور وفريدة)

– « احلف لك يا ماما » .

وتمتمت الأم في ارتياح ، وقد انزاح عن صدرها هم ثقيل :

– « ريحتني يافيكتور .. ربنا .. يريح قلبك يابني»

وسكتت « ربيكا » .. وهدأت انفاسها .. ثم اغمضت عينيها .. وفارقت الحياة ..

حدث هذا قبل خمس سنوات ، و « فيكتور » لم يزل عند « قسمه » ، لوالدته المتوفاة .. فهو لم يتزوج ، لان اخته « فريدة » لم تتزوج بعد .. أو على وجه الدقة ، لم تجد « الرجل » الذي يقبل الزواج بها . ومع ان القدر شاء ان يحرمها نعمة الجمال ، الا انه لم يبخل عليها بذكاء فطري ، ونفس طيبة ، وقلب كبير ، يحمل الحب للناس جميعا ..

كانت « فريدة » تعلم انها ليست في جمال قريناتها من الفتيات ، وأنها لا تملك من مغريات الأنوثة ، ما يلفت اليها الأنظار .. لذا ، كانت دائمة الانطواء على نفسها ، لا تبرح البيت الا لأمر ضروري ، او لقضاء حاجة ملحة ..

وحاول « فيكتور » بشتى الطرق والوسائل ، أن يجد « عريسا » لأخته « فريدة » .. ففتح بيته لأصدقائه من الشباب والفتيات ، ووضع « الباتيفون » الجديد ، ومجموعة الاسطوانات التي يملكها ، تحت تصرفهم .. وتعمل ان يخلق المناسبات ، ليتخذ منها ذريعة لدعوة الاصدقاء ..

وكان زملاؤه في البداية ، يقبلون على حفلاته . وكان هو يصرف عليها بسخاء ، ويهيء لها من اسباب التسلية والمتعة ، ما يجعلها موضع الاهتمام . فلما اكتشفوا غرضه الحقيقي، بدأ حماسهم يفتر ، فأعرضوا عنها.. الا «سونيا» تلك الشقراء الفاتنة ، التي استطاع « فيكتور » أن يحتل قلبها ، منذ أن رقص معها لأول مرة .. فأصبحت تحرص على تلبية دعواته ..

كانت « سونيا » ، تملك كل ما لا تملكه « فريدة » من مغريات الانوثة ومفاتنها .. كان لها وجه متناسق التكوين .. اجمل ما فيه ، انف صغير شامخ ، وعينان في لون الزمرد ، وابتسامة تكشف عن لؤلؤ في بحر من الياقوت .. أما قوامها ، فكان كل رسام ، يتمنى لو استطاع أن يتخذ منه « موديلا » ، لاروع لوحاته ..

وكان طبيعيا أن يغرق « فيكتور » في حب « سونيا » الى أذنيه ، وأن يتمنى اليوم ، الذي يستطيع فيه أن يحقق امله المنشود ، بالزواج منها . ولكن « قسمه » لوالدته كان يقف حائلا بينه وبين تحقيق حلمه .. ويوم أعلن « خطوبته » لها ، كان يراوده الامل ، في أن « فريدة » لابد من ان تتزوج ، ان عاجلا او آجلا .. فلما مرت الايام والشهور ، ولم يتقدم أحد لخطبة « فريدة » بدأ القلق يساوره .. وأسئلة كثيرة ، تطن في رأسه .. ماذا سيكون مصيره ، لو أن « فريدة » ظلت عانسا ولم تتزوج ؟ والى متى يمكن ان تنتظره « سونيا » ؟ ..

انه لا يستطيع ان يتصور حياته بدونها .. بل ان مجرد التفكير في هذا الأمر ، يغرقه في بحر من الكآبة والحزن ..

وكانت « فريدة » تشعر بما يعانيه « فيكتور » من الألم .. وكانت دائما تقول له :

« اذا كانت الحكاية متوقفه علي أنا.. فأنا بأحلك من « قسمك » . اتجوز أنت .. وأنا لي رب كريم .. » .

ولكن « فيكتور » ، لم يكن ليجرأ على أن يحنث بقسمه . فصورة والدته المحتضرة ، ونظراتها المتوسلة ، تأبى ان تفارق مخيلته ..

ومرت ثلاث سنوات ، و « فيكتور » لم يحدد موعدا للزواج ..

وبدأ اهل « سونيا » يتذمرون ، رغم ما كان يغدقه عليه من أموال وهدايا ، ليضمن سكوتهم .

وذهب « فيكتور » يوما لزيارة « سونيا » كعادته ، فلم يجدها في البيت وقالت امها وهي تتحاشى النظر في عينيه :

– « بصراحة يا فكتور ، البنت مش عايزة تشوفك »

– « لكن أنا باحبها » .

– « وهي كمان بتحبك ، لكن ده موش معناه انك تربطها الربطة السوده دي » .

– « ما هو انتي عارفه ظروفي يا ست أم سونيا .»

وقالت أم سونيا ، تقاطعه في غضب وحزم :

– « والله أحنا صبرنا كفاية .. يا تتجوز البنت ، يا تسيبها »

وخرج « فيكتور » من بيت « سونيا » ، وقد اسقط في يده ، وغمره يأس قاتل .. وتلمس طريقه الى بيته وهو غارق في افكاره السوداء .. وفجأة توقف قليلا ، كمن تذكر شيئا ، ثم ما لبث أن انعطف في زقاق ضيق ، يؤدي الى بيت « أم صوفي » السمسارة ..

لقد قرر ان يلجأ الى « أم صوفي » ، بعد أن سدت في وجهه جميع السبل . كان آخر شيء يفكر فيه ، هو ان يلجأ الى « سمسارة » ، لولا تلك الظروف القاسية التي يمر بها ، والتي قد تتحول الى « محنة » او « مأساة » ان لم يجد لها حلا سريعا ..

... وتنهدت « أم صوفي » ، وهي تمصمص بعينيها في الورقة المالية من فئة العشرة جنيهات ، التي وضعها « فيكتور » ، في يدها ، وقالت :

– « ربنا يقدرني اعمل اللي فيه الخير يا بني » .

– « ولكي عندي عشرة جنيه تانين يا « أم صوفي » ان لقيتلها عريس .

وعادت « ام صوفي » ، بعد اسبوع لتقول «لفيكتور» في لهجة يشوبها اليأس :

– انا بصراحة .. رجلي حفيت .. كل ما اروح لواحد ، يقولي ، كله الا « فريدة » .

– طب والعمل يا « أم صوفي » ؟

– أنا عندي واحد يمكن يقبل بيها .. لكن ما افتكرش انه يعجبك .

– اي واحد يعجبني .. المهم تتجوز.

– حتى لو كان الواد « ايلي » ؟ .

– « ايلي مين » ؟

– « ايلي العجلاتي » .

فقال « فيكتور » في استياء وكأنه لا يصدق اذنيه :

– « قصدك الواد الحرامي ، اللي سرق من معسكر الجيش الانجليزي ، واتحبس ؟؟ » .

– « يا خويا دي حكاية قديمة .. وأهو تاب وربنا هداه » .

– « بس ده واد حشاش .. وصايع ، وأخلاقه زي الزفت ..»

وعدلت « ام صوفي » من وضع الشال حول رأسها وهمت بالوقوف وهي تقول :

– « يبقى أنت بقى اللي موش عاوز تسهلها » .

– « ابدا يا « أم صوفي » .. بس دي أختي وما يهنش علي أرميها بالشكل ده .. » .

فقالت « أم صوفي » وهي « تغمز » بعينيها اللتين يحيط بهما اطار من الكحل الاسود الكثيف ، يجعلها أشبه بلاعبة في « سيرك » :

– « وهي يعني « الست فريدة » ملكة جمال ؟ .. ما انت عارف البير وغطاه .. » .

فقال فيكتور محتجا :

– « الجمال موش كل شيء ياست « أم صوفي » .

– « ولما هو موش كل شيء .. ايه اللي كان خلاك تجري ورا « سونيا » يا روح « أم صوفي » ؟؟

واراد « فيكتور » ان يقول شيئا ، ولكن « أم صوفي» أردفت تقول وهي ما زالت تتلاعب بحاجبيها ، وتحرك اصبعها المثني يمنة ويسرة « كبندول » ساعة الحائط :

– « ياخويا خليها هي تتجوز.. وبعدين ربنا يحلها »

– « طب وان ما استريحتش معاه ؟ »

– « تطلب الطلاق .. »

– « يعني تتجوز علشان تتطلق ؟ » .

– « ويجرى أيه .. لا هي اول اللي بيطلقوا ، ولا آخرهم .. المهم تحل انت مشكلتك ، وتتجوز « سونيا » قبل ما تطير من أيديك .. » .

واعاده كلام « ام صوفي » الى مشكلته المزمنة ، ووجد نفسه موزعا ، بين حرصه على مصلحة « فريدة » ، وحبه لـ « سونيا » .. ولكن لم يطل تردده كثيرا .. فقد رجحت كفة « سونيا » . . . .

ومع أن « فريدة » كانت على استعداد لأن تقبل اي شخص يعرض عليها الزواج ، الا ان المفاجأة كادت تشل تفكيرها ، حينما عرض عليها « فيكتور » ، اسم العريس « المحترم » .. فقد كان « ايلي العجلاتي » ، شابا سيء السمعة ، شرس الطباع ، يميل الى العنف عند الغضب . وله ايضا « صفحة سوابق » لا تشرف ..

وكانت « فريدة » تعلم انها اذا رفضت الزواج به فمعنى ذلك انها تهدم بيديها سعادة اخيها ، وتحطم امله في الزواج بمن يحب .. واستجمعت « فريدة » كل ما منحها الله من ارادة العقل ، وطيبة النفس ، وسمو القلب .. لكي تستطيع ان تقول : « نعم » ..

وتزوجت « فريدة » ... وتزوج « فيكتور » .. في ليلة واحدة .. وتوقع الناس في الحي ، أن يفشل زواج « فريدة » سريعا ، فتعود الى بيت أخيها بعد أيام ..

ولكن ما حدث كان شيئا غريبا .. فقد مرت الأيام والاسابيع ، و « فريدة » في بيت الزوجية لا تفارقه .. وبدأ « ايلي » يتغير ، فأقلع عن تعاطي « المخدرات » ، وهدأت شراسته .. ولم يعد يلجأ الى العنف ، بل لقد اصبح يهتم بعمله ودكانه .. ولاول مرة شاهد الناس «ايلي العجلاتي» يسير في الحي ، وعلى وجهه ابتسامة طيبة ..

لقد استطاعت « فريدة » بذكائها الفطري ، وقلبها الكبير .. أن تخلق من زوجها، انسانا جديدا، جديرا بحبها واحترامها ..

ولم يمض عام واحد .. حتى فوجىء الناس ، في الحي ، عندما بلغهم ان « فيكتور » تقدم الى المحكمة الملية للاحوال الشخصية ، يطلب الطلاق من زوجته « سونيا » ..

وعندما تركت أنا حارة اليهود ، كانت « فريدة » ، تعيش في بيت سعيد .. عماده ، زوج محب ، وأطفال صغار ..

أما « فيكتور » فقد كان لا يزال يبحث .. عن زوجة.

الفتوة

كان « سعديا » يعيش في زقاق « السقالبه » ، ولكن سلطانه كان يمتد الى أزقة الحي وحاراته جميعا ، ابتداء من اطراف شارع الصاغه ، وحتى مشارف حارة « سوق السمك » ..

وكان « سعديا » في عنفوان الشباب .. ضخم الجثة مفتول العضلات ، له عينان ضيقتان ، وانف « مفرطح » كانوف الملاكمين .. وهو الى جانب ذلك ، سريع الغضب ، كثير التقلب ، لا يحب النقاش ، ويكره استعمال عقله .. ولهذا فقد تعود أن يحسم كل جدال أو نقاش ، بقبضة يده ، أو بضربة من رأسه ...

ومن هنا أطلق عليه الاولاد اسم « طرزان » . أما الكبار ، فكانوا يلقبونه « بالفتوة » .

كان « الفتوة » يعيش في بيت قديم ، مع أمه العجوز واخته « ربقة » ، التي تكبره بخمس سنوات .. وكانت « ربقة » تعمل في حياكة ملابس الأطفال والنساء من أهل الحي ، لتعيل نفسها وأمها ، بعد أن توفي والدها ، ولم يترك لهما سوى هذا الولد « الصايع » الذي لم يفلح في مدرسة أو عمل .. وكم حاول أبوه ، أن يعلمه صنعة في اليد ، تغنيه عن الفقر ، غير أن محاولاته كلها ، باءت بالفشل ، فقد فضل سعديا أن يتسكع في الشوارع الى ساعة متأخرة من الليل ، غير مبال بما يسببه لوالديه من حسرة والم .. ولم تستطع أن تقوم « سعديا » لا كلمة ، ولا عصا .. وعندما توفي والده كان « سعديا » شابا ممتليء البنية ، طويل القامة ، مخشوشن الصوت ، يخطو نحو عامه السابع عشر.

ومرت الأسرة بعد وفاة عائلها بفترة عصيبة ، مما جعل « ربقة » تقطع عن أخيها مصروفه اليومي .. وثار « سعديا » محتجا على هذا الاجحاف ، ولكن اصرار امه واخته ، كان أقوى من ثورته ..

قالت له اخته تعيره : « أديك أهو بقيت زي الشحط ... وبدل ما تعيش عاله علينا .. روح شوف لك شغله تأكلك عيش » .. وانضمت الام الى ابنتها ، وصاحت في وجه ابنها : « انت ناسي يا ولد أن اختك على وش جواز ، ولازم تحوش لها قرشين للجهاز والدوطه ؟ .. »

وأمام هذه الحجة الدامغة ، لم يجد « سعديا » مناصا من الرضوخ للأمر الواقع ، فراح يبحث عن عمل ، يعوض به نفسه عن فقدان مصروفه .. فاشتغل صبيا عند « حلفون » البقال ، يرتب له المخزن ، وينقل المشتريات الى بيوت الزبائن ، ويفتح عينيه جيدا ، حتى لا تمتد يد الصبية خلسة الى « زكائب » الجوز واللوز ، المرصوصة عند مدخل الدكان ..

وظل « سعديا » يعمل عند « حلفون » البقال ، زهاء عام ونصف عام .. الى أن ضبطه « حلفون » يوما وهو يدخن في المخزن ، سيجارة تفوح منها رائحة « حشيش » .. فطرده من المحل ..

وتصادف في تلك الليلة ان شب حريق في دكان « حلفون » .. ولولا يقظة جيرانه ، الذين سارعوا الى اخماد النار لاتت على الدكان بما فيها.

وفي صباح اليوم التالي .. فوجيء « سعديا » بالسيد « حلفون » يأتي الى بيته ويتوسل اليه ان يعود الى عمله .. وبهت « سعديا » ، وظل يحملق في وجه « حلفون » دون أن يفهم شيئا .. ووصل اليه صوت «حلفون» يقول :

« أنا عارف أنك واخد على خاطرك مني علشان طردتك .. لكن يا سيدي حقك علي ما تزعلش .. وادي رأسك أهي » .

وقبل « حلفون » رأس « سعديا » .. ولكن « سعديا » ظل جامدا في مكانه ، يجوس بعينيه الضيقتين في وجه السيد « حلفون » عله يفهم سر تصرفاته الغريبة .. وقبل أن ينطق بكلمة ، أخرج « حلفون » من جيبه ورقة مالية من فئة الخمسة جنيهات ، ودسها في يد « سعديا » وهو يقول في صوت تشوبه نبرة استعطاف :

« اده تعويض بسيط عن الاساءة.. والمسامح كريم، بس وحياة ابوك ، بلاش حكاية الحرايق دي ... دانا موش مؤمن على الدكان ، ولو اتحرقت يتخرب بيتي »

وخرج « حلفون » .. وترك « سعديا » في مكانه .. وعندما أفاق من ذهوله ورأى الجنيهات الخمس في يده ، اكتشف أن هناك طريقا سهلا للكسب.

ومنذ ذلك اليوم وأصحاب الدكاكين في الحي، يخشونه ويعملون له الف حساب .. واستطاع «سعديا» أن يستغل خوفهم من بطشه وجبروته ، لكي يأخذ منهم كل ما يريد ..

علبة السجائر « الكوتاريللي » يقدمها له كل صباح ، « عم حبيب » البقال .. والحليب والجبن هدية متواضعة من محلات أولاد « وهبة » . اما السكر والشاي والبن ، فمن دكان « حلفون » .. فاذا ما اشتهت نفسه شيئا من الفاكهة أو الخضروات ... فما عليه الا أن يمد يده الى أي عربة او « نصبة » في السوق ، ليغترف منها ما وسعت شهيته ... حتى عم « مصطفى » بائع « الطرشي » الذي يقف بعربته المحملة بالبراميل ، عند ناصية حارة القرائين وسوق الفراخ ، لم يفلت من دفع الاتاوة فما أن يرى «سعديا» مقبلا نحوه حتى يترك زبائنه جميعا، ليعد له طبقا خاصا من مختلف صنوف « المخللات » ، التي يصنعها بنفسه والتي جعلته يستحق عن جدارة ، لقب « ملك الطرشي » .

وهكذا ظل « سعديا » يفرض سلطانه على أهل الحي .. فاذا ما طلب شيئا وجد من يلبي طلبه في الحال .. واذا ما أعلن عن رغبة ما ، أسرع المحيطون به الى تنفيذها ، دون نقاش ، لان « سعديا » كما قلنا رجل سريع الغضب ... ولا يحب الكلام الكثير ... واذا ثارت أعصابه تحول الى ثور هائج ... يضرب ... وينطح .. ويحطم كل شيء حوله .

ولقد حاول بعض شبان الحي ممن امتهنت كرامتهم ، أن يلقنوا هذا « الثور » درسا في الاخلاق .. فنصبوا له كمينا في الليل ، قرب مدخل بيته .. فما كاد يمر من هناك حتى انقضوا عليه فألبسوه « جوالا » من الخيش ، وراحوا يكيلون له الضربات في عنف وشراسة ، حتى تحطمت العصي في أيديهم .. وعندما كلت قواهم وتقطعت أنفاسهم من شدة الاعياء ، نزع « سعديا » الجوال عن راسه ، والقاه تحت قدميه في هدوء ، كمن ينزع قميصا متسخا ، ثم راح يعمل فيهم بقبضته ورأسه .. ولولا انهم كانوا يجيدون الركض السريع ، لمزقهم بضرباته الطاحنة .

ولم يكن « سعديا » يستمد سلطته من عضلاته هو فحسب ، بل من تعاونه ايضا مع « فتوات » الاحياء المجاورة. فلقد كان من عادة « فتوات » الأحياء الشعبية أن يتعاونوا فيما بينهم ، لدرء أي خطر قد يهدد مركزهم ... فكان كل منهم يهب الى نجدة زميله ، اذا ما دعت الحاجة الى ذلك.

وكان « سعديا » حريصا على توثيق عرى هذه الروابط وتعزيزها ، فكان بين وقت وآخر يزور « فتوات » حي « الصاغة » و « الازهر » ، و « الخرنفش » ، و« بيت القاضي » حاملا اليهم الهدايا ، أو مهنئا بالعيد .. وكان أكثرهم ، يرد له الزيارة في أعياد اليهود .. وما أكثرها على مدار السنة ...

وذات يوم انطلقت الزغاريد من بيت « سعديا » وعلم الناس أن « الفتوة » خطب لنفسه فتاة من أهل الحي تملك بيتا في حارة « كنيس ابن ميمون » وحانوتا في شارع الموسكي لبيع لعب الاطفال ...

ودهش أهل الحي .. وتساءلوا بصوت خافت لايصل الى أسماع « سعديا » ، كيف يمكن لفتاة مثلها أن تقبل شابا « كسعديا » ، لا يجيد من أمور الحياة سوى تهديد الناس وضرب عباد الله ؟ ..

وقال بعضهم أن الفتاة شاهدته يوما يصول ويجول في معركة ساخنة ، هزم فيها ثلاثة من الشبان الأشداء ، فاعجبت به ، واصبح فارس أحلامها.. وقال آخرون انه حب قديم يعود الى أيام الطفولة ، وأن الفتاة اقنعت أهلها بأن « سعديا » لن يستقيم في حياته الا اذا حقق أمنيته بالزواج منها ..

وامل الناس في أن تهذب « الخطبة » من أخلاق « الثور » الثائر ولو قليلا .. ولكن سرعان ما خاب املهم فقد ظل « سعديا » كما هو .. بل لعله زاد عبوسا وشراسة وعنفا .

وجاء يوم العرس .. ولبست حارة « موسى بن ميمون » ثوبا قشيبا ، فزينت واجهة بيت العروسين بالاضواء الملونة ، وعلقت الاعلام الخضراء فوق النوافذ والشرفات ورشت الأرض بالرمل الاصفر تكريما للعروسين وانطلقت الزغاريد في كل مكان .

وكان « عرسا » لم تشهد له حارة اليهود مثيلا منذ سنوات طويلة ، رقص فيه « فتوات » الاحياء الشعبية المجاورة ، على نغمات المزمار البلدي ، ودقات الطبول وغنى فيه احد المطربين الشعبيين المعروفين ، حتى منتصف الليل .....

وعندما هدأت الضجة ... وانفرط عقد المدعوين .. دخل العروس وعروسه الى غرفتهما .....

وتنفس الناس الصعداء.. فقد مرت الليلة بخير ، ولم تحدث معارك او اشتباكات بين المدعوين على «النقطة» كما هي العادة في افراح « الفتوات » و « المعلمين » .

وتطلع بعض الشبان وهم ينصرفون الى بيوتهم ... الى نافذة العروسين المضاءة .. وقال احدهم ضاحكا :

« مسكينة العروسة يا جماعة .. ربنا يكون في عونها الليلة دي » .

وضحك الشبان .. وتفرقوا.

واطفئت الانوار ، وساد السكون .. ولم يعد يقطعه الا وقع خطوات جندي الدورية ، الذي يروح ويجيء في الحارة ...

ومضت الساعات بطيئة ، وبدأت بشائر الفجر تلوح في السماء .. وفجأة مزق السكون صوت صراخ امرأة ، صادر من نافذة العروسين .. وفتح باب الشقة وخرج منه « سعديا » مهرولا وهو نصف عار .. تلاحقه قطع ملابسه التي تقذفه بها « عروسه » وهي تصرخ كلبؤة مجروحة :

« اياك توريني وجهك مرة ثانية يا ابن الكلب .. يا غشاش يا فاقد الرجولة .. يا خائب .. يا ... »

وفتحت احدى الجارات نافذتها ، واطلت منها لتستطلع سبب هذه الضوضاء فراعها مشهد العروسين في هذا الموقف الغريب .. فقالت تسأل العروس في دهشة بالغة :

« اية اللي حصل يا عروسة كفى الله الشر ؟ » .

فقالت العروس وهي تضرب على صدرها بيديها ، وصوتها يكاد يختنق من شدة الغيظ :

« يا شوم ما حصل ياست « استر » .. حضرته اللي عامل نفسه فتوة وجدع وطرزان ، طلع خايب وعايب .. يعني بالعربي .. طلع موش راجل .. »

واغلقت الجارة نافذتها ، وأسرعت كالقذيفة تنقل الخبر من بيت الى بيت .. أما « سعديا » فقد جمع ثيابه المتناثرة وغادر حارة « ابن ميمون » منكس الرأس ، يتصبب العرق البارد على وجهه .

وفي الصباح ، عرف الحي كله قصة فشل « سعديا » مع عروسه . ومنذ ذلك اليوم لم يعد احد في الحي يرهب « سعديا » .. او يخافه ... لقد فقد « الفتوة » لقبه .. وسلطانه.

العم محمود

يوم عرفته ، كان رجلا في مقتبل العمر ، قوي البنية اسمر البشرة ، يرتدي دائما جلبابا أزرق ، ويشد وسطه محزام سميك من الجلد ، ويضع على رأسه طاقية من الصوف المغزول ، رمادية اللون ، يلفها « بلاسة » بيضاء. وكان ابرز ما فيه قدماه الكبيرتان ، فقد كان يسير حافي القدمين دائما . أما صدره فقد كان يغطيه شعر أسود كثيف ، يبرز من فتحة جلبابه الأزرق ..

كان اسمه « محمود الطولوني » .. يعيش في حارة اليهود وحيدا ليس له امرأة ، ولا أولاد ، ولا أقارب. وكان ملاذه في الشتاء ، فرن المعلم « شبتاى بربر » .. يخترش ارضها في الليل ، مستدفئا برمادها الساخن اما في الصيف ، فكان يأوى الى قهوة « سلامة » ، بعد انصراف روادها ، يقضي فيها ما تبقى من ساعات الليل ، مكوما نفسه خلف « النصبة » ، مسندا راسه الى الحائط .. غارقا في سبات عميق ..

ولم يكن احد ، يعرف على وجه الدقة ، من أين جاء هذا الرجل ، ولماذا استقر به المقام في حارة اليهود دون غيرها من الأحياء .

قال بعضهم ، انه نزح في صباه من الارياف الى القاهرة ، سعيا وراء الرزق ، بعد ان ضاقت به سبل العيش في بلدته ... واكد آخرون ، أنه من عائلة كبيرة ، تعيش في حي « طولون » .. ثم نشب خلاف بينه وبين اخوته ، على توزيع تركة والدهم ، فما كان منه الا أن هجر البيت ، وراح يتنقل من حي الى آخر ، حتى وجد نفسه اخيرا .. في حارة اليهود .

وفتح الناس في حارة اليهود ، قلوبهم وبيوتهم ، لهذا الوافد الغريب ، فارتاح اليهم ، وأحبهم .. واستقر به المقام بينهم ..

والحق يقال .. لقد كان « محمود الطولوني » يعيش في حارة اليهود كواحد من أبناء هذا الحي ، رغم أنه مسلم متمسك باهداب دينه ، يقيم فرائض الصلوات الخمس يوميا ويصوم شهر رمضان ، ويرفع أصبعه ناطقا بالشهادتين كلما مرت به جنازة في الطريق ...

وكان الرجل في البداية ، يتوجس خيفة من طعام اليهود .. فلما عاشرهم ، وعرف أنهم يحرمون لحم الخنزير ولا يقربون الميتة ، ويملحون لحوم البقر والاغنام ، قبل طهوها ، لاستبعاد ما علق بها من دماء .. اطمأنت نفسه ..... فاقبل على طعامهم بنفس راضية ، وشهية مفتوحة ...

وكان سكان الحي جميعا ، كبارا وصغارا ، يعرفون « محمود الطولوني » وينادونه باسم « عم محمود » . فما من بيت في الحي ، الا ودخله الرجل ، ليحمل اليه قطعة اثاث جديدة .. أو لينقل منه قطعة قديمة .. فهو « عتال » ماهر ، يرفع اثقل الأحمال على ظهره ، في يسر ومرونة مستعينا بحزامه الجلدي لتثبيت حمله ، وبقدميه الكبيرتين على حفظ توازنه ...

وكان الرجل يشارك اهل الحي افراحهم.. واحزانهم فاذا ما أقيم عرس في الحي ، كان « عم محمود » هو الذي يحمل الكراسي الى مكان الحفل ، وينصب الموائد ، ويساعد اصحاب العرس في اعداد وليمة العشاء .. وفي المآتم .. كان الرجل سباقا الى قضاء حاجة اهل الميت ، وتقديم القهوة « السادة » للمعزيين ..

اما اذا احتفلت عائلة « بطهور » مولود جديد ، فان « عم محمود » هو الذي يحمل كرسي النبي « الياهو » الذي يطاهر عليه المولود ويسير به مختالا من الكنيس الى بيت المحتفلين ، كالجمل الذي يحمل « المحمل » . فاذا ما ساله احدهم :-

« ابن مين اللي حيطاهروه يا عم محمود ؟»

اجاب على الفور : « ابن الخواجه بن عزرا »

« اهو ابن يوسف ؟ » .

« ابن أخوه « ايلي » وأمه الست سارة بنت « شاؤول » تاجر « المنى فاتوره » اللي في أول شارع الموسكي .. » .

هكذا كان « عم محمود » ، قريبا ، وصديقا .. و « شيخ حارة » . يعرف كل العائلات في الحي ، كبيرها وصغيرها ، غنيها وفقيرها ، اصلها وفصلها .. ولا عجب فقد قضى الرجل بين سكانها زهاء العشرين عاما ، ساعيا في طلب الرزق ، تقوده قدماه الى كل بيت يجد فيه عملا والى كل دكان يحتاج اليه صاحبها ..

ولم يكن الرجل يغالي في طلب الأجر ، بل كان قنوعا يرضى بالقليل .. قروش معدودة ، ووجبة من طعام متواضع ، او قطعة من ثياب قديمة يمكن الانتفاع بها ورغم أن « عم محمود » كان يكتسب من عمله شيئا من المال ، الا انني لم اره يرتدي جلبابا غير جلبابه الازرق القديم ، ولم ار في قدميه يوما حذاءا .

وكان بعض الناس يقولون ، أنه يدخر نقوده لأيام الشيخوخة حين تعجزه السنون عن العمل . وكان بعضهم يؤكد أن الرجل انما يدخر ما يربحه من مال ، ليقتني به قطعة ارض في بلدته .. وكان يحلو لبعضهم أن يمزح معه ، فيسأله :

« حوشت كام يا عم محمود ؟ »

فيرفع الرجل رأسه مشيرا بيده الى السماء قائلا ببشاشة المؤمن الصبور :

« الستر من عند الله .. موش طالب غير الصحة »

والغريب أن « عم محمود » لم ينقطع يوما عن الحي . وكان اذا انتهى من اداء عمل ما افترش عتبة أحدى الدور ، يلتقط فوقها أنفاسه ، الى أن يناديه عمل آخر ..

وهكذا كان الرجل يدور كالطاحونة طوال أيام الاسبوع ، لا ينقطع عن السعي الا ساعة واحدة ، في ظهيرة كل يوم جمعة ، حيث ييمم شطر جامع « البكري » القريب من الحي أو جامع الشعراني ليؤدي فيه صلاة الجمعة .. فاذا ما حل يوم السبت وهو يوم عطلة اليهود ، حيث يغلقون فيه محلاتهم وينقطعون عن العمل .. اوى الرجل الى دكان مهجور في « درب الكنيس » يتخذ منها مسكنا ومصلى ، والقى بجسده المتعب فوق « حصيرة » تغطي ارضها ، وأسلم أجفانه لنعاس طويل ، يعوض به ما فاته من نوم طوال أيام العمل ..

الى أن كان يوم ، انقطع فيه « عم محمود » عن الظهور في الحي .. وظن الناس أن وعكة طارئة المت بالرجل ، فحجبته عن الانظار وأنه سرعان ما يعود الى الظهور .. ولكن عندما طال غياب الرجل ، ولم يظهر له أثر في الحي بدأ الناس يشعرون بالقلق ..

لقد أصبح « عم محمود » شخصية مألوفة بين سكان الحي .. بل وجزءا لا يتجزأ من واقعها الانساني والاجتماعي . تماما كالشيخ « شبتاى » و « أبو لحاف » و « سلامة القهوجي » و « اشير الحانوتي » و « عم الياهو » الضرير وغيرهم .

وبدأت التكهنات ، والفروض ، تحاول حل اللغز ..

قال البعض : « ربما عاد الرجل الى بلدته، بعد أن فاضت به لواعج الشوق الى أهله وناسه » .

وقال آخرون : « وربما تزوج » ..

اما المتشائمون ، فقد عبروا عن خشيتهم من ان يكون الرجل قد أصيب بمكروه.. أو مات ...

ومرت الأيام .. وانقضت ثلاثة أشهر ، وعادت الحياة الى مجراها الطبيعي ، وبدأ الناس في الحي يعودون انفسهم على غياب الرجل ، كما يعود المرء نفسه على فقدان من تطويهم المنية ، من أحبابه ..

الى أن كان يوم من أيام الشتاء الباردة ، وبعض الناس خارج بيوتهم ، يصيبون شيئا من أشعة الشمس الدافئة ، ويتحدثون .. وفجأة توقفت سيارة « تاكسي » عند منعطف « درب الفرن » ، وخرج منها رجلان .. كان أحدهما هو « عم محمود » ..

وكدت لا أعرف الرجل ، فقد كان حليق الذقن .. يرتدي « جلبابا » من الصوف الفاخر ، وعلى راسه « طاقية » من اللباد ، يحفها شال من الحرير الأبيض ... وفي قدميه حذاء جديد .. اما الرجل الآخر ، فقد كان شابا وسيما ، يرتدي بذلة انيقة ، ويضع على عينيه « نظارات » طبية ، تضفي عليه شيئا من الرزانة المحببة.

واسرع الناس يلتفون حول الرجلين ، وامتدت الأيدي تصافح « عم محمود » تارة وتعانقه اخرى .. وارتفعت الاصوات تساله :

- « فينك يا عم محمود ؟ » .
- « فينك يا راجل ؟ »
- « كنت فين الغيبه الطويله دي ؟ » .

وتخلص « عم محمود » بصعوبة من عناق مستقبليه وقال مشيرا الى الشاب الوسيم : -

- « اسمحو لي أولا أقدم لكم ابني .. الدكتور خليل»
وأسرع الشاب مكملا : -
- « خليل محمود الطولوني » .
وتساءل احدهم : -
- « صحيح ده ابنك يا عم محمود ؟ » ...
- « أيوه .. اتوفت امه وهو عمره عشر سنين .. ربيته وعلمته لغاية ما خلص دراسة الطب في انجلترا .. ورجع من هناك قبل ثلاث شهور » .

ثم التفت إلى ولده قائلا :

- « جبتك هنا مخصوص ، عشان تشوف بعينيك الناس الطيبين اللي عشت معهم فترة من أسعد فترات حياتي .. »

وادار الدكتور خليل عينيه بين الوجوه البشوشة المرحبة من أهل الحي ، وقال وفي صوته شيء من التأثر :

- « ما تصورتش أنهم بيحبوك للدرجة دي »
وصاح سلامة « القهوجي » وهو يشير الى مقهاه :
- « كان والدك بينام الليل ورا النصبه دي »
- « وكان بيتعب ويشقى طول النهار » .
- « وكان بينام في فرن شبتاى بربر في الشتا »
- « وكان بيعيش معانا في افراحنا وأحزاننا »

ونظر الدكتور الى والده ، وقد ترقرقت الدموع في عينيه وقال بصوت مختنق :

- « انت قاسيت كتير يابا »
قال محمود وعلى وجهه ابتسامته الطيبة :
- « كل شيء يهون يا دكتور »
وتعانق الرجلان .. والقى الدكتور خليل براسه على صدر والده ، ثم انخرط في بكاء مسموع ...
وربت « عم محمود » على ظهر ولده في عطف وحنان وقال :
- « عيب يا دكتور الناس تقول ايه ؟ »
ولم يقل أحد شيئا .. كل منهم يجفف دموعه بمنديله .. او يمسحها بكفه .. فقد خنقتهم العبرات .

وبعد مرور أيام معدودة .. شاهد الناس ، « عم محمود » وهو يعلق لافتة كبيرة ، في شرفة « شقة » خالية في البيت المواجه لفرن « شبتاى بربر » . وكانت اللافتة تحمل هذه العبارة :

عيادة الدكتور خليل محمود

امراض باطنيه – جامعات لندن

الدون جوان

كان « رحمو » أو « رحيم » ، رجلا طاعنا في السن يتراوح عمره حسب تقدير الناس ، بين السبعين والثمانين عاما . اما هو ، فلم يكن يعرف متى ولد بالضبط ، ولكنه يؤكد انه عاصر حرب عرابي ، التي بدأت بثورة الجيش المصري ، ضد الخديوي توفيق ، وانتهت باحتلال بريطانيا لمصر .

ولد « رحمو » اذن في يوم ما ، من احد أعوام النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في مدينة المنصورة .. وكان ابوه قد نزح من الشام في صباه ، وتزوج بابنة الحاخام « شلومو » الذي كان يعيش في المنصورة ، وانجب منها ولدين ، هما « يعقوب » و « رحمو » .. ثم عاجلته المنية اثر وباء اجتاح المدينة ، واهلك الكثيرين فلما وجدت الزوجة نفسها وحيدة ، حملت ولديها ورحلت بهما الى القاهرة ، واستقر بها المقام في حارة اليهود ..

والتحق « رحمو » بمدرسة « الفرير » المتاخمة لمصلحة الكسوة الشريفة ، عند ناصية شارع سيدي الشعراني .. واستطاع بعد سنوات الحصول على شهادة أهلته للعمل موظفا في أحد البنوك.

اما « يعقوب » ، فقد ترك المدرسة ، واشتغل عاملا في محل لبيع الاقمشة ، في شارع الموسكي .. ثم دفعه طموحه ، الى السعي وراء احلام الثراء ، فهاجر الى الولايات المتحدة ، وانقطعت اخباره ...

وكان « رحمو » يبدو أصغر سنا مما هو عليه فقد كان يعتني بنفسه وبهندامه عناية بالغة ، فهو دائما حليق الذقن ، تغطي خصلة من شعره الاسود المصبوغ جانبا من صلعته .. أما شاربه المتناسق المفتول ، كشارب الملك « فؤاد » فقد كان مثار اعجاب الكثيرين من اقرانه وحسدهم .

ورغم انه كان موظفا على « التقاعد » ، لا يملك غير معاشه الضئيل ، الا انه كان حريصا على أناقته ، فالبذلة دائما نظيفة ، والقيمص الابيض ، ياقته « منشاة » وربطة العنق مستقرة في مكانها ، لا تحيد عنه يمنة أو يسرة وطربوشه الاحمر القاني ، يستقر مائلا فوق رأسه ، ويكاد يمس طرف حاجبه الايمن .

كان « رحمو » صورة تكاد تكون طبق الاصل ، من الممثل الهزلي « شرفنطح » الذي كنا نشاهده في مسرحيات الريحاني .. وكان دائم المرح ، سريع البديهة ، كثير الضحك .. لا يحمل هما من هموم الدنيا. ولا عجب فقد كان « رحمو » رجلا أعزب .. لا تربطه التزامات عائلية ، ولا تحد من حريته قيود الزوجية ...

لقد رفض ان يتزوج ، لا لانه كان يكره النساء ، بل لانه كما يقول ، يرفض أن يدخل « السجن » بقدميه . وعندما كانت والدته على قيد الحياة ، وكان هو لا يزال شابا ، كانت تلح عليه في الزواج .. وكانت تقول له دائما : -

- « اريد أن أرى اولادك يا رحمو قبل ان اموت » .

وكان « رحمو » يؤكد لها أن الاوان لم يحن بعد ، وانه حينما يجد الفتاة المناسبة ، فلن يتردد في الزواج بها ، اكمالا لنصف دينه كما يقولون .. الا ان « رحمو » كان يعلم أنه لن يستطيع التفريط في حريته ، مهما كانت مغريات الزواج ومحاسنه ..

ثم ماذا ينقصه لكي يفكر في الزواج ؟ .. ان والدته رغم كبر سنها ، « سيدة بيت » من الدرجة الأولى ... فثيابه دائما نظيفة ، وجواربه مرتقه ، وقمصانه في مكانها ، لا ينقصها زر واحد .. وحذاؤه دائما يلمع .. وسريره نظيف .. ولم يحدث أن عاد الى البيت مرة ، فلم يجد فيه وجبة من طعام شهي ...

اما احتياجه الى النساء ، فلم يكن يعدو زيارات خاطفة ، يقوم بها « رحمو » بين الحين والحين .. الى بعض أوكار المؤسسات في حي « الازبكية » ومع ذلك فقد كان يحلو له ان يظهر أمام سكان الحي بمظهر « الدون جوان » الذي تتسابق النساء الى نيل رضاه .. وكان يروي لاقرانه الشباب من « مغامراته العاطفية » ما يسمح به خياله الفياض ، واسلوبه الفذ المثير ، الذي يعتمد على المبالغة المسرحية .

والغريب في الأمر أنه استطاع أن يقنع الناس بانه « دون جوان » حقيقي . حتى أن بعض النساء في الحي كانت تعلو وجوههن حمرة الخجل ، اذا ما مر بهن فى طريق.

وهكذا ظل « رحمو » يتهرب من الزواج ، الى ان فاته القطار .. وماتت والدته قبل أن تكتحل عيناها برؤية ذريته ... وأصبح « رحمو » كهلا .. ثم شيخا .. ولكنه ظل محتفظا بحيويته وأناقته ولباقته في الحديث .

كان من الممكن ان تنتهي قصة « رحمو » عند هذا الحد .. لولا أن القدر اراد لها غير ذلك ..

ففي عصر يوم من أيام صيف عام 1950 طرق بابه احد كبار المحامين .. فلما احتوتهما غرفة الجلوس ، ساله المحامي :

- « هل انت السيد رحميم ساسون ليفي ؟ »
- « هو انا »
- « هل لك أخوة ؟ » .
- « لي اخ واحد اسمه « يعقوب » ، وقد انقطعت عني اخباره منذ أن هاجر الى الولايات المتحدة ، قبل حوالي خمسين عاما » .

ثم استطرد « رحمو » بلهجة يشوبها القلق والتوجس :

- « ولكن لم كل هذه الاسئلة ؟ »

فاطرق المحامي لحظة ، ثم قال بصوت حاول أن يجعله رقيقا :

- « يؤسفني ياسيد « رحمو » أن أبلغك بوفاة أخيك »
- « هل مات أخي ؟ » .
- « وترك لك ثروة تقدر بثمانين ألف جنيه »

وكاد يغمى على « رحمو » ، لولا أن اسعفه المحامي بجرعة من الماء .. اعادته الى وعيه ..

وأصبح « رحمو » بين عشية وضحاها من الاثرياء ، ورفض ان ينتقل الى حي « الزمالك » او «جاردن ستي » او « مصر الجديدة » ، كما اعتاد أن يفعل كل من أثرى من سكان الحي .. فلقد كان « رحمو » بطبيعته رجلا عاطفيا تربطه بحارة اليهود سنوات عمر طويل ، وذكريات أيام عزيزة .. وشيوخ في مثل سنه ، يأنس اليهم ويأنسون اليه ... أضف الى ذلك أن الناس هنا ، يصدقون ما يرويه لهم من « مغامراته » ، حتى أصبح يحمل لقب « دون جوان الحارة » .. وكان هذا اللقب يبعث في نفسه نشوة من الزهو والكبرياء ، تفوق نشوة الثراء ...

وزاد الرجل من أناقته ، واصبح يرتدي افخر الثياب وجدد اثاث بيته فجعله على احدث طراز .. ثم بدأ يفكر في .. الزواج .

لم يعد الزواج مسؤولية يعجز عن تحملها ، بعد أن اصبح الان يملك المال .. انه يستطيع أن يشتري كل شيء بالمال .. حتى الشباب .. أما الشيخوخة ، فسيمحو تجاعيدها بطلاء من ذهب !!

ولم يكن من العسير على « رحمو » أن يجد فتاة من أهل الحي ، ترضى به زوجا ، لا سيما ، اذا كانت تحلم بالثراء العاجل .. وترى قمة السعادة في عقد من اللؤلؤ او خاتم من الماس .. او سيارة « روز رويز » طولها خمسة امتار .

ولقد كانت « روزا » من هذا الطراز . وكانت امها أيضا من نفس الفصيلة ، ترى في المال كل شيء في الحياة. ولعل الفقر الذي عاشت فيه « أم روزا » وما عانته من شظف العيش هي وابنتها ، بعد وفاة عائلهما ، هو الذي جعلها ترى في المال ، غاية وأملا مرموقين .

وكانت « روزا » وأمها تعيشان في « بدروم » مظلم ، في بيت قديم يواجه بيت « رحمو » . كانت الفتاة ، على جانب كبير من الجاذبية والجمال حريصة على اناقتها رغم فقرها ، وكان « رحمو » يراها من شرفة داره كل صباح عند ذهابها الى عملها في محلات « سيكوريل » في شارع فؤاد ، وكان أحيانا يلقي اليها بتحية الصباح ، فلا تكلف نفسها مشقة الرد على تحيته ، بل تمضي في طريقها بوجه عابس ، غير عابئة بنظراته التي تلاحقها ..

فلما أصبح الرجل ثريا ، تغير الموقف .. تحول العبوس ، الى ابتسامة رقيقة .. واصبح رد التحية مقرونا بأحسن منها ..

واخذت « روزا » تطيل من وقفتها كل صباح عند باب البيت ، لتصلح من هندامها ، ولتضع اللمسات الاخيرة على « مكياج » وجهها ، ولتتيح « لرحمو » فرصة مبادلتها الحديث .. وكان الحديث احيانا يتحول الى همسات ، واشارات ، تفوح منها رائحة انوثة طاغية .. اعادت الشيخ إلى صباه فاسرع يعرض عليها الزواج ..

واكتملت الحلقة حول الرجل .. وسقط « رحمو » في الفخ الذي نصبته له « راحيل » وابنتها « روزا » . وفي يوم « الخطبة » .. قدم « رحمو » للفتاة « شبكة » خاتما من الزمرد والماس ، ثمنه الفان من الجنيهات تليق بالمقام . أما والدتها فكان نصيبها معطفا من الفراء الثمين ، لا ترتدي مثله غير سيدة من الطبقة الارستقراطية .

وتم الزواج .. وقضى العروسان شهر العسل في « الاسكندرية » ، ولما عادا الى الحي ، كانت في انتظارهما شقة فاخرة ، استأجرها « رحمو » في عمارة شيدت حديثا ، واشرفت الام بنفسها على اختيار اثاثها ..

وعندما اختلت الام بابنتها ، لتسألها كيف قضت « شهر العسل » أغرورقت عينا « روزا » بالبكاء ... وقالت في أسى :

- « لم يكن هناك عسل على الاطلاق » .
فضربت الام بيدها على صدرها وقالت :
- « أتقصدين انه ..... »
فقالت « روزا » مقاطعة وهي تجفف دموعها :
- « وماذا تتوقعين من رجل في مثل هذه السن ؟ » .

ولم تحر الام جوابا ، فهي التي دفعت بابنتها الى هذا المصير وهي التي زينت لها الزواج من « رحمو » طمعا في ماله .. وربتت الام على كتف ابنتها وقالت :

- « عليك بالصبر يا ابنتي فلن يعمر هذا الشيخ طويلا ... » ثم استطردت في خبث : « كل ما عليك الان ، هو أن تستغلي نقطة الضعف فيه » .

وبدأت « روزا » تستغل الموقف لصالحها .. فطلبت اليه أن تنتقل أمها للعيش معهما في نفس الشقة لتكون على مقربة منها .. وحاول « رحمو » الاعتراض في بادىء الامر ولكنه سرعان ما خضع لرغبة زوجته في النهاية ..

وكثرت طلبات الزوجة .. واستفحل جشعها و « رحمو » يدفع دون أن يتذمر أو يعترض ، وكأنما اراد بذلك أن يعوضها عن « حق » لا يملك هو القدرة على اعطائه .

لقد اكتشف « رحمو » عجزه الجنسي منذ الليلة الأولى لزواجه ، وكان هذا العجز ، يمسك بتلابيبه كلما أوى الى فراش زوجته .. وحز في نفسه وهو « دون جوان الحي » ان يفشل في اثبات رجولته أمام زوجته .

ولم يترك « رحمو » طبيبا او اخصائيا الا ولجأ اليه في طلب العون ، ولكن دون جدوى .. فقد وقف الطب عاجزا عن تحقيق المعجزات .. ونصحه بعض اصدقائه المقربين ، بتعاطي « المخدرات » مجرب كل انواعها .. ولكنها لم تحرك فيه ساكنا .. واستعان باصناف العطارة « كالحبهان » و « جوزة الطيب » و « اللبان الدكر » وغيرها ولكنها لم تسعفه في محنته ... وذهب الى اضرحة الأولياء والصالحين يوقد لها الشموع ، ويبذل النذور .. ولكن شيئا لم يتغير .. وظل « رحمو » عاجزا عن القيام بوظيفته كرجل ...

ومرت الاسابيع والشهور .. واصيب « رحمو » بالياس .. وأدرك أن السنين ، أقوى من الاطباء ، والعطارة ، وأضرحة الأولياء ، فاستسلم صاغرا لحكم القدر. ولكن عز على « رحمو » أن يتنازل عن لقب « دون جوان » وابت عليه رجولته أن يصبح موضوعا للتفكه والسخرية بين الناس في الحي ، فقرر ان يحتفظ بالسر بين جدران بيته ، مهما كلفه الأمر.

ولقد كلفه ذلك كثيرا .. فقد كانت زوجته وامها تعلمان مدى حرصه على اخفاء سره .. فاستغلنا ذلك الى اقصى حدود الاستغلال .. وكان الرجل يدفع صاغرا ، لا ينبس ببنت شفه ، ولا يحاول الجدل ..

وكان كلما استوقفه احد اصدقائه وسأله : -

- « متى سيشرف ولي العهد يا سيد « رحمو » ؟ »
كان يقول :
- « عيال أيه .. هو أنا عندي صبر عشان أربي عيال ؟ ما هي كده عال والحمد لله » .
ثم يمضي في طريقه ذريع الخطى ، يكاد يقفز في سيره .. كأنما يريد أن يؤكد للناس على انه ما زال ذلك « الدون جوان » الذي يملك قوة الشباب وحيويته ..

غير أن الرجل كان يتألم في اعماقه .. ويشعر في قرارة نفسه بشعور العاجز المقهور ، الذي يخضع لسيطرة ظالم قوي مستبد .. فاصبح على غير عادته عصبي المزاج لا يكثر من الحديث .. ولا يميل الى المزاح .

وفي يوم ، جاء لزيارة « ام روزا » قريب لها ، يعمل كاتبا في مكتب احد المحامين ، فسألته ..

- « قل لي يا زكي .. اذا مات « رحمو »، فهل ترث « روزا » كل ثروته ؟ » .

فقال الرجل :

- « ترثه ، لو مات دون أن يترك وصية يوصي فيها بغير ذلك »

وهبط قلب الام بين جنبيها ، وقالت دون ان تحاول اخفاء جزعها :

- « اتعني انه يستطيع حرمانها من الميراث ؟ »
- « اذا شاء ذلك لاسيما وانها لم تنجب منه » .

وانتهت الزيارة .. وخرج الرجل .. وترك « روزا » وامها فريسة للوساوس والقلق .. أن « رحمو » يحقد عليهما ما في ذلك شك ، وليس من المستبعد أن يكون قد فكر في حرمان « روزا » من ثروته الكبيرة ..

واطلقت « راحيل » العنان لخيالها المحموم ، وراحت تبحث عن حل لمشكلة ابنتها ... واخيرا هداها شيطانها الى ما كانت تبحث عنه.

قالت الام لابنتها :

- « أنها لكارثة حقا أن تضيع الثروة من يديك يا ابنتي » .

فقالت « روزا » في حنق ظاهر :

- « وماذا علي أن أفعل يا أماه ؟ . »
- « ان تنجبي له ولدا . » .

فقالت « روزا » في سخرية تشوبها مرارة الالم :

- « اتريدين ان انجب له من الروح القدس ؟ ... »

فقالت الام بهدوء :

- « لا .. بل من «البير» .. الشاب الذي كان يحبك ويتمنى الزواج بك ، قبل أن يتزوجك « رحمو » .

ورغم أن « روزا » كانت تعلم ان امها لا تتورع عن ارتكاب أحط الأعمال واحقرها في سبيل الوصول الى المال ، الا أنها وقفت شبه مذهولة ، وهي تصغي الى الخطة التي تفتقت عنها مخيلة والدتها ، للوصول الى الثروة ...

وعندما انتهت الأم من سرد التفاصيل ، تساءلت « روزا » في شيء من القلق : -

- « واذا أنكر بنوة الطفل ؟ » .

فقالت الأم وابتسامة خبيثة تملأ وجهها : -

- « لن يجرؤ « رحمو » على ذلك ، فهو كما تعلمين حريص على اخفاء سر عجزه الجنسي » ..

وفي الليلة التالية .. ذهبت « روزا » الى شقة صديقها السابق « البير » ، واسلمت له نفسها ..

ومرت ست شهور ، وكانت ليلة من ليالي الصيف .. جلس « رحمو » كعادته في الشرفة يبحث عن نسمة هواء ، ويغرق همه في زجاجة « الكونياك » عندما دخلت عليه « ام روزا » وهي تقول مهللة : -

- « مبروك يا « رحمو » الف مبروك » .

وتطلع « رحمو » الى « حماته » في امتعاض وسألها بصوت يفيض بالكراهية :

- « مبروك على ايه ؟ » .

فقالت ام « روزا » : « ستصبح والدا عما قريب ».

ووقفت قطعة « المزة » فى حلق « رحمو » فدفعها بجرعة من الشراب ، وقال وهو يكاد يختنق من السعال :

- « سأصبح ماذا ؟ » ..
- « ستصبح أبا يا « رحمو » .
- « اهذا وقت مزاح يا امرأة ؟ » .

- « انا لا امزح يا رجل .. لقد كانت زوجتك الان عند الطبيب ، وقد أكد لها انها حامل . »
قال رحمو بصوت متحشرج : -
- « حامل ؟ »
- « وفي الشهر الثالث يا رحمو » .

وحملق « رحمو » في وجه حماته برهة كمن لا يصدق اذنيه ، ثم انفجر ضاحكا ...

وشاركته حماته في الضحك .. ولكن « رحمو » ظل يضحك ويضحك دون انقطاع .. وحاولت « ام روزا » أن تجعله يكف عن الضحك ، ولكن دون جدوى ، فقد استمرت قهقهة « رحمو » تجلجل في ارجاء البيت وتصل الى بيوت الجيران ...

وفجأة .. توقف عن الضحك وارتخت يداه .. ومال راسه فوق صدره .. وصاحت ام روزا تناديه .. ولكن الرجل كان قد اسلم الروح الى خالقها .

ومضت ثلاثون يوما ، واصبحت « روزا » في الشهر الرابع من شهور حملها ..

وعندما فتحت وصية « رحمو » .. اتضح أن الرجل أوصى بجميع أمواله للمؤسسات الخيرية .

مقهى لنشانو

سرى الخبر في الحي ، سريان النار في الهشيم ، ففجر في كل زقاق ومنعطف ، بل وفي كل بيت ، نقاشا حادا ، كان ينخفض أحيانا ، فيصبح همسا تتناقله الافواه والاذان ، ويرتفع أحيانا أخرى الى ما يشبه الندوات السياسية في المعارك الانتخابية .

انقسم اهل الحي ، بين مصدق ، ومكذب .. فمن صدق الخبر حاول أن يجد له تعليلا يقبله المنطق فلما أعيته الحيلة ، راح يفترض شتى الفروض والاحتمالات .. ليبني عليها فروضا و احتمالات اخرى شأن من يبني فوق الرياح قصورا من رمال ..

وأما الذين لم يصدقوا الخبر ، فقد خرجوا الى شارع « الموسكي » و « السكة الجديدة » ، ليتلقفوا الأعداد الأولى من جرائد المساء ، فور وصولها الى أيدي باعة الصحف ..

وفي « قهوة لنشانو » تجمع رواد المقهى حول الصحفي « البرت مزراحي » الذي راح يؤكد لمن حوله، صحة الخبر .. وانه استقاه من مصدر موثوق به ، في نقابة الصحفيين قبل ساعتين .

وضرب « هاروش » كفا بكف ، وقال بصوت يعتصره الالم وكأنه يرثي فقيدا عزيزا : -

- « موش معقول يا عالم .. دي كانت هنا قبل اسبوعين ، وزارت كنيس « بن ميمون » ، وطلبت من الحاخام « بنيامين » أن يقرأ لها بعض الصلوات ، على روح المرحوم والدها » .

وقال يوسف عقنين معقبا على قول «هاروش» :-

- « دي عودتنا انها تجي تزور الكنيس بين الوقت والتاني ، ودايما كانت أيدها سخية في أعمال البر » .

وتذكر أحد شيوخ الحي ، سنوات مضت .. كانت تربطه بوالدها صداقة متينة ، فقال :

- « كان والدها الله يرحمه ، عليه صوت من أجمل الأصوات ، ولما كان يرتل صلاة الكوهانيم « الكهنة » ، كانت الدموع تفر من عينين الناس .. واللي خلق الخلق .. » .

واعتدل السيد « لنشانو » في مقعده .. وتنحنح .. وقبل أن يدلي برأيه دخل أحدهم الى المقهى وهو يحمل في يده عددا من جريدة « المقطم » صدر قبل قليل ، فتخاطفته الأيدي في لهفة ، وفضول ...

وراحت العيون تبحث عن الخبر .. ولم تكن في حاجة الى البحث كثيرا .. ففي صدر الصفحة الأولى .. صورة الفنانة « ليلى مراد » ، يغطي رأسها وشاح ابيض ، وهي راكعة فوق سجادة صلاة ، وبين يديها مصحف كبير مفتوح وأمامها شيخ الجامع الازهر ، جالسا فوق كرسي .. يلقنها درسا في أصول الشريعة الاسلامية .

الخبر اذن صحيح .. ليلي مراد .. اسلمت ..

وساد المقهى صمت ثقيل ، وأطرق الشيوخ برؤوسهم وفي عيونهم نظرات جامدة .. وعشرات من الاسئلة الحائرة تلسع الصدور ..

وزادت حرارة الجو من الشعور بالاختناق ، فتصببت قطرات العرق على الوجوه .. وقطع حبل الصمت ، « البرت مزراحي » ، محاولا تخفيف وقع الصدمة :

- « وهو اية اللي حصل يعني ؟ .. لا هي اول واحدة تركت دينها .. ولا آخر واحدة » .

فقال « ها روش » وهو يغالب شعورا بالمرارة وخيبة الامل : -

- « بس يا جماعة اللي مالوش خير في دينه ... مالوش خير في أحد » .
  وأمن الحاضرون على قوله .. بعضهم بهزة من رأسه .. والبعض الآخر « بهمهمة » غير مفهومة ..

وانتهت الأغنية التي كانت تنبعث من «الراديو» وانطلق صوت المذيع يعلن عن الاغنية التالية .. وكما يحدث في القصص المكتملة الحبكة .. اختار المذيع أغنية للمطربة « ليلى مراد » ...

وامتدت يد « لنشانو » بسرعة الى جهاز « الراديو » الموضوع فوق الرف .. فاطفاه ..

وعاد الصمت يخيم على « المقهى » ، ولم يعد يسمع سوى صوت « قشاط » اللعب ، وضربات « الزهر » في جوانب « الطاولة » ، وكركرة الماء في بطن « شيشه » ، وهمسات بعض الرواد ، تتخللها ضحكات بلا روح . .

وفجأة صاح أحدهم : -

- « افتح الراديو يا لنشانو » .
- « ما فيش راديو النهارده » .
- « طب واحنا ذنبنا ايه عشان تقلبها لنا محزنة ؟ »
  فصاح « لنشانو » وهو يقاوم احساسا بالغضب يتفجر في اعماقه : -
- « والله أنا حر في القهوة بتاعتي .. انشا الله اقلبها جنازة كمان .. وبصراحة كده يا جماعة ، اللي موش عاجبه يتفضل يروح يقعد في قهوة ثانية » .
  ثم استطرد موجها حديثه الى صبيه : -
- « واد يا عزوز .. شيل الصورة دي من هنا » .
  واشار بيده الى الحائط ، حيث علقت صورة ملونة كبيرة للفنانة « ليلى مراد » داخل اطار من الخشب المذهب ..

وغربت شمس ذلك اليوم ، وهدأت حدة النقاش في المقاهي ، وعلى ناصيات الازقة والحارات .. واوى الناس الى بيوتهم ، وجرفتهم مشاكل يومهم في تيارها ، فأبعدتهم قليلا عن ذلك الحدث ، الذي كاد ان يخرجهم عن طورهم طوال ساعات النهار .

وفي صباح اليوم التالي .. تناقل الناس في الحي قصة غريبة ، تقول أن سيارة تاكسي ، وقفت بعد منتصف ليلة امس ، أمام كنيس « بن ميمون » وخرجت منها « ليلى مراد » متشحة برداء أسود .. تخفي ملامح وجهها نظارات كبيرة سوداء .. ودخلت الى الكنيس ، وزارت ضريح « بن ميمون » ثم طلبت الى « شماش » الكنيس ان يتلو بعض الصلوات على روح والدها زكي مراد ..

وانتشرت القصة سريعا في كل مكان .. ووصلت الى كل بيت .. فأشرقت الوجوه العابسه ، وأطلت من العيون نظرات الارتياح .

وفي « مقهى لنشانو » .. اختار صاحب المقهى ، من بين مجموعة الاسطوانات ، اسطوانة قديمة ، وضعها فوق « الجرامفون » الذي يقبع في زاوية من مقهاه ، وادار اليد المعبئة ، ثم انزل الابرة في رفق وحذر .. ودارت الاسطوانة ، وانبعث من المكبر ، صوت ليلى مراد يردد في رقة وعذوبة ، اغنية « حيرانه ليه بين القلوب » ..

والتفت « لنشانو » الى صبيه « عزوز » ، الذي كان يقف خلف « النصبة » ، يعد كوبا من الشاي لاحد الزبائن ، وقال بصوت يفيض رضاء : -

- « رجع الصورة محلها يا واد يا عزوز .. نفض البرواز من التراب ولمع القزاز كويس » .

بيت سمحه

عند مدخل حارة السد ، وعلى بعد خطوات قليلة من مدرسة « غرين » ، كانت « سمحه » تتخذ مكانها أمام « نصبة » من الخشب ، ترتكز على صندوقين فارغين رصت فوقها قطع الحلوى ، والشيكولاته ، واللبان ، و«السمسمية» و « براغيت الست » و « نبوت العفير » وغيرها من اصناف الحلوى ، التي تجتذب اليها اثنين .. الاطفال ، والذباب .

كانت « سمحه » تستقبل الاطفال بابتسامتها الطيبة المرحبه . اما « الذباب » فكانت تحاول طرده بـ « منشة » خاصة ، صنعت من الالياف وقش الارز ، تحملها دائما في يدها ، وعيناها تتابعان تلك الحشرات المزعجة ، في هبوطها ، وصعودها ..

وكان أطفال الحي ، يمرون امام « نصبة سمحة » يملأون عيونهم بما تحفل به من الوان واشكال .. وكانت « سمحة » حريصة دائما على أن تعرض فوق « نصبتها » كل ما يستجد في هذا المضمار من صنوف الحلوى وفنونها ، فما يكاد يظهر في السوق صنف جديد ، الا وتراها سباقة الى اقتنائه .. ومن هنا كانت « نصبة سمحة » معرضا زاخرا بالالوان ، ومرتعا لاحلام كثير من الاطفال . بعضهم يكتفي بابتلاع ريقه والتنهد في حسرة كمن يقول « العين بصيرة .. واليد قصيرة » ، والبعض الآخر يضع قروشه أو « مليماته » في يد سمحه ، ويملأ يديه وجيوبه بما لـذ وطاب من أصناف الحلوى .

كانت « سمحه » رغم كبر سنها ، تتمتع بمسحة من جمال ، لم تفلح تجاعيد الشيخوخة في طمس معالمه ، فظلت عيناها في زرقة السماء الصافية ، في يوم من أيام الربيع ..

وكانت « العجوز » راضية كل الرضا عن عملها هذا هكذا كان يبدو من بشاشة وجهها ، الذي لم تكن تفارقه الابتسامة ، حتى عندما كان الاطفال يتجمعون عندها ، في صخب وصياح يصم الاذان .. بل لعل ابتسامتها كانت تكبر وتتسع ، كلما زادت الضجة ، وارتفع الصياح من حولها .

وكان أكثر الاطفال ، يطلبون « الحلوى » ، ثم لا يجدون معهم ما يكفي لدفع ثمنها . وكان قلبها الطيب ، يابى عليها أن يعيد الاطفال ما أخذوه من « الحلوى » .. فتطلب اليهم أن يدفعوا ثمنها غدا أو بعد غد ، ثم لا تلبث « سمحة » أن تنسى ... او تتناسى ..

لكم تمنت أن يكون لها طفل ، يملأ عليها حياتها ... تزوجت مرتين .. ولكن الاقدار شاءت أن تحرمها نعمة الانجاب ... ولكنها ظلت عاقرا ، حتى ادركتها الشيخوخة .

كان زوجها الأول ، شابا ماجنا ، مستهترا ، لا يقيم للاخلاق وزنا ولا يعرف تقوى الله ، فاذاقها الذل والهوان ، وهي صابرة على المكروه ، صبر النفس المؤمنة الطيبة .. ولما حملت منه .. اكرهها على الاجهاض . وكان هذا الاجهاض سببا في عقمها ...

وبعد خمس سنوات قضتها معه في جحيم من الحياة ، وافق على طلاقها ، اذا تنازلت له عن حقوقها الشرعية .. وتنازلت « سمحة » عن كل شيء .. حتى حقيبة ملابسها الشخصية لم يسمح لها بأخذها .. وخرجت كما يقول المثل العامي « من المولد بلا حمص » وهي تعاني من جروح النفس والجسد ..

ومرت الايام والشهور .. وبدأت الجراح تندمل ، وعادت « سمحه » تستقبل الحياة من جديد ، مستمدة من شبابها وجمالها ، املا يضيء طريقها الى غد أفضل. وكان لابد لها من أن تجد لنفسها عملا شريفا ، تعيش منه ، ولا سيما بعد أن توفي والدها فجاة ، ووجدت نفسها مسؤولة عن أعالة والدتها المريضة ... فعملت « بائعة » في محل خاص لبيع الملابس المستوردة ، في شارع فؤاد ، لا يؤمه الا الأثرياء ، وأبناء الطبقة « الارستقراطية » ، ممن يبحثون عن آخر « موديلات » لندن وباريس ...

وذات يوم ، دخل المحل رجل وقور ، يغزو الشيب فوديه ، وتطل من عينيه نظرة عميقه .. تجمع بين دفاء الشباب ، وحكمة الشيوخ . وتقدمت اليه « سمحة » تسأله عن بغيته .. ووقف الرجل يتأملها في شيء من الفضول والاعجاب ، دون ان يقول شيئا .. وعندما رأى حمرة الخجل تعلو وجنتيها ، قال معتذرا : -

- « عفوا انستي .. ان جمالك يلفت الانظار » .

وتمتمت « سمحة » بكلمة شكر ، وهي تتعثر في حيائها ، وتحاول الافلات من نظرته الطيبة العميقة .. وفجأة تحرك شيء في صدرها .. وشعرت بأن مصيرها منذ هذه اللحظة قد ارتبط بهذا الرجل ..

واصبح السيد « دافيد » يتردد على المحل كثيرا ، ليشتري كل شيء .. لا يحتاج اليه !! فقد كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من رؤيتها والحديث معها ...

وعلمت « سمحه » أنه يكبرها بعشرين عاما .. وأنه أرمل ثري ، له ولدان وابنة في مثل سنها ... وكلهم متزوجون .. وانه يعيش وحيدا في بيت كبير في حي « الزمالك » ، يشرف عليه « طباخ » ، و« خادم عجوز » و « جنايني » ..

وتعددت اللقاءات .. وصارحته بماضيها الأليم ، فضم الرجل جراحها الى صدره .. واحتضن احزانها بقلبه الكبير .. فانهارت الحواجز وذابت في همسة حب ، عشرون عاما كانت تفصل بينهما ... وتزوجا .. وعاشت « سمحة » مع زوجها « دافيد » حياة كلها حب وسعادة عوضتها عن احزان الماضي والأمه ..

شيئان .. كانا يعكران عليها صفو هنائها ... عجزها عن الانجاب .. ومقاطعة اولاد زوجها لابيهم منذ أن تزوج بها ..

كان « دافيد » يعتقد أن خصام ابنائه لن يطول ، وانهم سيقبلون في النهاية بالامر الواقع ، فتصفو القلوب والنفوس ، وتعود المياه الى مجاريها .. غير أن الايام خيبت ظنه ، فقد أصر أولاده على موقفهم العدائي منه ، فحرموه من رؤية أحفاده الذين أحبهم وشغف بهم .. فكان دائما يبدو كئيبا رغم شعوره بالسعادة الى جوارها ..

وكان يحز في قلب « سمحه » أن ترى سحابة حزن في عين الرجل الطيب ، كلما جاء ذكر الابناء والاحفاد . وتمنت « سمحه » من صميم قلبها، لو أنها استطاعت أن تمنح زوجها طفلا يؤنس وحشته ... ويعوضه عن ذلك الجفاء المؤلم ، الذي يلاقيه من ابنائه .

ولم تترك « سمحه » طبيبا أو اخصائيا ، الا ولجات اليه .. وأجرى لها الاطباء ، عدة عمليات جراحية ، ولكنها ظلت عاقرا ، كشجرة اقتلعت من جذورها ، فأصابها الجفاف .

وعاشت « سمحه » مع زوجها عشرين عاما ، منحته فيها أطيب ما يمكن أن تمنحه امرأة محبة ، لزوج وفي .. ومات دافيد وهو في السبعين من عمره ... وفتحت وصيته بحضور ابنائه ومحاميه ... وقرأ المحامي نص الوصية :

« أنا فلان بن فلان ، اوصي وأنا بكامل قواي العقلية بجميع أموالي وسنداتي المالية ، ومجوهراتي المحفوظة في البنوك ، لزوجتي الوفية « سمحة » التي وهبتني أسعد ايام حياتي . وكذلك أوصي لها ، بالبيت الذي تعيش فيه في شارع شجرة الدر بالزمالك .. اما اولادي ، فاوصي لهم بمعمل الادوية ، الكائن في حلوان .. على أن لا يحق لهم التصرف فيه بالبيع أو الرهن ، قبل أن يبلغ أحفادي سن الرشد » .

وثار ابناء الرجل .. ورفعوا دعوى أمام « المحكمة المختلطة » يطالبون فيها بالغاء الوصية ، باعتبار ان والدهم كتبها تحت تأثير زوجته التي استغلت شيخوخته ، ومرضه واحتياجه اليها ، فدفعته الى حرمان ابنائه ، من حقهم الشرعي في أمواله ، التي تقدر بمائة الف جنيه .

وأوقف تنفيذ الوصية .. وجمدت الاموال في البنوك ... ووضع (البيت) تحت الحراسة القضائية الى ان يتم الفصل في الدعوى نهائيا .

ولم تجد « سمحه » سببا يدعوها الى البقاء في بيتها في « الزمالك » فعادت الى الحي الذي ولدت وتربت فيه... واستأجرت شقة متواضعة في حارة السد ، وعودت نفسها على الحرمان والصبر ..

وكأنما اراد القدر أن يزيد من قسوته وعناده ، فطالت اجراءات الدعوى .. وأجلت القضية عشرات المرات .. وانقضت ثلاث سنوات ، والقضية لا تزال غارقة ، في بحر من المرافعات ، والمذكرات ، والمداولات التي لا تنتهي .

وانفقت « سمحة » كل ما تملك من مال ومتاع خاص لتقيم اودها ، واصبحت تعيش على راتب شهري ، يقدمه لها الحارس القضائي ، لا يكاد يسد ضرورات الحياة وهي التي تعودت على رغد العيش ونعيمه .

وابي كبرياؤها عليها ، أن تلجأ الى حل النزاع عن طريق التراضي والاتفاق مع الورثة .. فقد اصبحت القضية ، قضية عناد ... وكبرياء وتحد ...

وفي يوم من أيام صيف عام 1945 سافرت « سمحه » الى « المحلة » لزيارة « سيدي ابو حصيرة » . وامام ضريحه الذي يحج اليه المؤمنون من جميع الديانات، وقفت « سمحة » تغسل بدموعها ، جراح قلبها الحزين ، وعلى شفتيها رجاء اشبه بالصلاة :

« ايها الحبر الصالح .. بحق الآباء والانبياء ابراهيم واسحق ويعقوب .. هبني الصبر والعزاء ، واعد السكينة الى نفسي ، واعني على الايام » .

وفي نفس الليلة .. رأت « سمحة » في الحلم ، طفلا يبكي ، فضمته الى صدرها ومنحته قطعة من الحلوى فاذا به يكف عن البكاء ، وتعود الى وجهه ، ابتسامته المشرقة .. وعندما استيقظت « سمحة » من نومها ، ادركت ان « سيدي ابو حصيرة » وضع على عاتقها ، مهمة اسعاد الاطفال .. وهل هناك ما يسعد قلب طفل أكثر من قطعة حلوى ؟ .

وهكذا وجدت « سمحه » نفسها ذات يوم ، وهي تتخذ مكانها أمام « نصبة » من الخشب ترتكز على صندوقين فارغين . رصت فوقها قطع الحلوى ... « والشيكولاته » .. « واللبان » .. « والسمسمية » و « نبوت الغفير » .. وغيرها من أصناف الحلوى التي تجتذب اليها الاطفال .. والذباب .. وكان أكثر الاطفال ، يطلبون الحلوى ، ثم لا يجدون معهم ما يكفي لدفع ثمنها ... وكان قلبها الطيب ، يأبى عليها أن يعيد الاطفال ما أخذوه من « الحلوى » ، فتطلب اليهم أن يدفعوا ثمنها غدا .. أو بعد غد . وكان الاطفال ينسون .. وكانت « سمحه » ايضا تنسى ، او تتناسى ..

الى ان كان يوم ، اصيبت فيه « سمحه » بمرض عضال الزمها الفراش ، فلم تعد تقوى على تحريك جسدها .. وكان الاطفال ، يذهبون الى بيتها ، ويقفون أمام سريرها يسألونها « متى ستعودين يا « سمحه » لبيع الحلوى ؟ » وتصمت « سمحه » ولكن عيونها تمتلىء بالدموع ...

وعندما جاءها محاميها يوما ، ليبلغها بأنها ربحت القضية ، وان المحكمة أقرت شرعية الوصية ، كانت « سمحه » تشعر بأن أيامها في الحياة قد أصبحت معدودة .. واملت « سمحه » وصيتها على محاميها :

« نصف التركة ، توزع على احفاد المرحوم زوجي لقد حرمهم من حقهم في ساعة غضب ، ولكنه كان يحبهم حبا لا يوصف . أما النصف الآخر ، فأوصي به لبناء ملجأ للايتام يحمل اسم المرحوم زوجي » ..

ماتت « سمحه » .. وتم بناء الملجأ .. وبعد أيام ووضعت على بابه لافتة كتب عليها « ملجا دافيد للايتام » ولكن الناس في الحي كانوا يطلقون عليه اسم : « بيت سمحة » ...

أبو لحاف

كان سكان الحي جميعا يعرفونه ، وكانوا يطلقون عليه اسم « ابو لحاف » أما نحن معشر الصبية ، فكنا نسميه « أبو شماعة » أي صاحب المشجب . والتسميتان وان اختلفتا ، الا أنهما تشيران الى معنى واحد ، « فأبو لحاف » أعتاد أن يضع على جسمه كل ما يمن عليه به المحسنون من « جلاليب » وقمصان ومعاطف قديمة وكأنه مشجب متحرك ، تعلق عليه قطع الملابس.

كان « ابو لحاف » كلما منحه أحدهم جلبابا او قميصا أسرع بارتدائه فوق ملابسه ، الى أن يختفي بدوره تحت جلباب او قميص اخر ، يمن به عليه محسن جديد ، فأصبح رداؤه اشبه بلحاف مهترىء ، تتدلى منه خرق متنافرة الالوان والاشكال.

وكان « أبو لحاف » لا يتخلى عن ردائه هذا أبدا .. يمشي ويأكل .. وينام .. ويقعد بلحافه ، لا يغيره ولا يبدله ، حتى في أيام الاعياد .. كل ما كان يفعله ، هو انه يضع فوق لحافه هذا معطفا أبيض فضفاضا ، يحتفظ به لمثل هذه المناسبات ، ثم يحث خطاه مختالا في طرقات الحي ، فيعرف الناس ان الرجل ذاهب الى الكنيس ، لاداء الصلاة .. وما أن ينتهي العيد ، حتى يطوي « ابو لحاف » معطفه الابيض ، ويعود الى السير بلحافه المهلهل غير عابى بنظرات الاشفاق والسخرية التي كانت تلاحقه في كل مكان.

ورغم انه جاوز سن الشباب بمراحل ، وأصبح يعاني الفقر والحرمان ، ويعيش على ما يتصدق به الناس عليه من مال وطعام ، الا انه كان قوي البنية ، موفور الصحة ، قلما شكا من مرض أو علة ، وقلما تغيب عن مكانه الذي اعتاد أن يقضي فيه نهاره ، عند باب دكان المعلم « الياهو » ، صاحب طاحونة البن اليدوية ، التي كان سكان الحي يطحنون فيها حبوب قهوتهم ذات النكهة الخاصة.

ولما كان « الياهو » كفيف البصر ، فقد كان يستأنس بحديث « ابو لحاف » ، الذي كان يحمل اليه اخبار الحي وأنباء الدنيا ، يستقيها من بعض الجرائد والمجلات القديمة ، التي كان يتركها رواد المقاهي ، فوق الموائد أو المقاعد .

وكان الصبية في الحي يخشون التحرش به لسرعة غضبه . وكان اذا غضب « ابو لحاف » .. اهتزت اركان الدور ، وارتجت النوافذ تحت وطأة صرخاته المدوية .. حتى المقاهي ، كان روادها ينقطع حديثهم ، ويتحول الى همس ضاحك ، اذا ما انطلق صوت « ابو لحاف » من عقاله.

كانت الكلمات تنطلق من حنجرته كالسيل الجارف ... تارة واضحة ، وأخرى مبهمة . كانت مزيجا عجيبا من الفصحى والدارجة ... وكان صوته يرتفع ويثور أحيانا كحمى البراكين .. ثم يعود فيهدا ، وينخفض الى برودة الجليد ... تماما كممثل بارع ، يؤدي دور البطولة في مسرحية لشكسبير ، كان « ابو لحاف » يقول كل شيء .. ولا يقول شيئا .. فهو يصب جام غضبه على الكفرة ، ولاعبي الميسر ، والذين يأكلون أموال اليتامى والمساكين ، ثم ينتقل فجأة وبلا مقدمات ، الى وصف محاسن المرأة ، والتغزل باردافها ، التي هي نعيم الدنيا ومتعة الارواح ، على حد قوله .. ثم يعود الى حديث الواعظ المرشد ، فيبشر الخارجين عن طاعة الله ، بعذاب جهنم وبئس المصير ، مدعما اقواله بنصوص من التوراة ، او بايات من القرآن .. وقد يلجأ أحيانا الى أبيات يحفظها من شعر لأبي العلاء او المتنبي ، يلقيها في حفاوة لفظية بالغة ، تبرز موسيقى الوزن والتفاعيل .. ثم يختتم « كرنفاله الخطابي » بمقطوعة زجلية ، يرتجلها من وحي الموقف ومقتضياته .. وقد يكون هذا الوحي ، رغيفا من الخبز ، او طبقا من « الفول المدمس » يمن به عليه واحد من عباد الله ..

والحق يقال ، لقد كانت ذاكرة الرجل ، تعي الكثير مما حفظه في المدرسة ، فلقد اتم مرحلة الدراسة الابتدائية يوم كانت مناهجها تعطي الطالب شيئا من كل شيء وتؤهله لحمل لقب « مثقف » . وكان سكان الحي يعتبرون « ابو لحاف » مثقفا رغم جنونه .. وكنا نحن معشر الاولاد ، نعتبره « مجنونا » رغم ثقافته ..

كنا نعجب به ونخشاه في نفس الوقت .. وكنا نحاول أن نستدرجه في الحديث ، لنعرف منه سببا واحدا ، يفسر لنا سر تصرفاته الغريبة ، ولكن دون جدوى ، فلقد اصر الرجل على تجاهل ماضيه ، وعدم الخوض في اسراره الشخصية .

وكنا كلما سألنا الكبار قالوا لنا : « لقد جن المسكين من سوء معاملة زوجته له » وعندما كنا نواصل التساؤل : « و اين زوجته ؟ » كان البعض يقول : « ماتت » والبعض الآخر، يؤكد انها غادرت الحي الى مكان بعيد لا يعرفه احد ...

وكنا وقتها صغارا .. وكنا نصدق ما يقال لنا .. الى أن كبرنا وعرفنا الحقيقة .. أن اسمه الحقيقي « يوسف » تزوج في شبابه بامرأة جميلة ، أحبها حبا ملك عليه وجدانه ومشاعره ، فأنفق عليها كل ما ورثه عن والده من مال وعقار ، حتى أصبح لا يملك سوى راتبه الذي يتقاضاه من وظيفته الحكومية المتواضعة.

وعاد الرجل يوما الى بيته مبكرا ، فوجد رجلا آخر في فراش زوجته ، فأحس برعشة تهز بدنه .. وببرودة قارسة تسري في أوصاله ، فأخذ يضع فوق بدنه كل ما وصلت اليه يده من أغطية .. ومفارش .. وملاءات سرير .. محاولا دفع غائلة البرودة التي تسحق عظامه ، وتخنق آخر خفقة من حب دافيء كان يعيش في قلبه.

ومنذ ذلك اليوم ، وهو يرتدي كل شيء فوق كل شيء .. جلاليب .. معاطف .. قمصانا .. جوارب .. اي شيء ، اي شيء ، يستطيع أن يحميه من برودة الذكريات. وكان « أبو لحاف » كلما شعر بقبضة الذكريات تدق مشاعره ، انطلق يدوي بصوته الذي يشبه صوت الرعد ، يصب جام غضبه على الكفرة ولاعبي الميسر ، والذين يأكلون أموال اليتامى والمساكين .. ثم ينتقل فجأة وبلا مقدمات الى وصف محاسن المرأة التي هي .. ..

وعندما مات « أبو لحاف » ، وذاع نبا موته بين سكان الحي .. تجمعت في بيت « الطهارة » سبعة أكفان ، تبرع بها المتصدقون من أهل الحي ، لتشييع جثمانه.

وقال « عزرا » الحانوتي معلقا : « حتى في موته اراد ان يدثروه بلحاف من أكفان ». ثم صمت لحظة وتابع قائلا : - « كأنما عظامه ما زالت تشعر ببرودة الخيانة » .

الأسوره

انزلت « أم يوسف » « الصرة » التي تحملها فوق رأسها ، والقت بها على الأرض ، ثم قالت وهي تلهث : -

- « قطيعة تقطع السلالم .. واللي عملوها .. ده شيء .. يهد الحيل .. أنا عارفه ايه اللي خلاكي تسكني في الدور الرابع ياست « ماري » ؟ » .

  وقالت صاحبة البيت وعلى وجهها ابتسامة ترحيب :
- « اقعدي استريحي يا « أم يوسف » .

  فقالت « أم يوسف » وهي تفترش بساط الغرفة ، وضربات صدرها ما زالت تتلاحق ، من أثر المجهود الذي بذلته في الصعود الى الطابق الرابع : -
- « هي فين الراحة يا ست « ماري » ؟ .. شغلتنا دي وحياتك ، ما فيهاش غير تعب القلب والمناكفه ... ويا ريت عاجب الناس . »
- « وحتعملي ايه يا « أم يوسف » .. أكل العيش عاوز كده .. »

  وتنهدت « ام يوسف » وقالت بصوت حزين كانما تخاطب نفسها :
- « الله يرحمك يا « أبو يوسف » .. كان شايلني فوق راسه وموش مخليني محتاجة أي حاجة »

  وارادت « ماري » أن تغير مجرى الحديث ، حتى لا تسترسل « أم يوسف » في سرد متاعبها ، فقالت : -
- « تحبي أعملك فنجان قهوه يا « أم يوسف » ؟ »

  فقالت « أم يوسف » ، وهي تعالج عقدة « الصرة » بأطراف أصابعها :
- « لا كتر خيرك .. الدنيا غربت ، وأنا سايبه يوسف لوحده » .

واتخذت صاحبة البيت مكانها فوق « الكنبة الاسطنبولي » ، بينما واصلت « أم يوسف » حديثها قائلة : -

- « جبت لك « دستة » المناديل ، والشرابين الصوف .. واللبان الذكر »
- « والمغات اللي طلبته منك ؟ »
- « « المفات » اللي في السوق ما عجبنيش .. بصراحة مغشوش .. يا ختي بيغشوا كل حاجة الايام دي » .
- « لكن أنا اعتمدت عليكي يا «أم يوسف» » .
- « وانا وحياتك ، رايحة بكره « الغورية » مخصوص علشان اجيب لك «المغات» » . ثم استطردت « أم يوسف » تقول وهي تحل آخر عقدة في « الصرة » : -
- « هو أنا عندي أغلى منك يا ست « ماري » .. دانتي الخير والبركة » .

وفتحت « الصرة » ، وأخذت « أم يوسف » تخرج منها بضاعتها وتعرضها على صاحبة البيت .. كانت هذه الصرة ، هي رأس مالها ، ومصدر رزقها الوحيد .. تحملها فوق رأسها ، وتتنقل بها من بيت الى آخر ، فتشتري منها نساء الحي ما تحتجن اليه من مناديل ، وجوارب ، وأقمشة ، تتسقطها « أم يوسف » من فضلات المصانع والمحلات ، لتبيعها بأسعار زهيدة ، وتربح فيها بضع قروش تقيم بها أودها ، وتكفل ضرورات الحياة لولدها « يوسف » الذي رعته طفلا بعد موت أبيه ، فأصبح اليوم غلاما ، يخطو نحو عامه الثالث عشر ، يثلج صدرها .. ويملأ حياتها ، أملا ونورا وعزاء . ..

لقد نشأت « أم يوسف » أو « راحيل » ، بين ثلاث اخوات ، في بيت فقير ، أخنى عليه الدهر ، فحرمه من عائل يرعاه ، ومنحه « أما » تعاني من مرض نفسي فقدت معه كل شعور بالمسؤولية ، فتركت بناتها الاربعة لرحمة القدر ، ورعاية المؤسسات الخيرية اليهودية. فتعلم ثلاثة منهن مهنة الحياكة واشغال التطريز وتخرجن .. وقنعن بالعيش البسيط .. وتزوجن ...

اما « راحيل » فقد كانت بطبيعتها ، فتاة عاطفية . تجنح الى الخيال .. وتحلم بفارس جميل ، يمتطي صهوة حصان أبيض ، ويهبط اليها من مكان بعيد وفي يده باقة من زهور « النرجس » ، ليحملها الى قصر كبير .. كله ذهب .. وحرير .. لذلك لم تجد في نفسها ، أدنى رغبة في تعلم حرفة ، تستعين بها على مواجهة الحياة ، فتركت المدرسة وهي في الرابعة عشرة من عمرها ، وعملت « خادما » في بيت رجل ثري من سكان الحي ..

ومرت ثلاث سنوات .. وسخا الجمال في عطائه لها ، فاكتملت أنوثتها ، واصبحت متعة للأبصار والقلوب .. وانتظرت فارس الاحلام ، ولكن « فرسان » الحي ، كانوا يحلمون بالمال .. والنسب. أما الجمال ، فلم تكن سوقه رائجة بين الباحثين عن الثراء ..

- « بكام يا أم يوسف ؟ .. أم يوسف !! »

وانتشلت « أم يوسف » نفسها من دوامة الذكريات ، فاذا بها لا تزال في بيت « الست ماري » ، وأكوام البضاعة منثورة هنا وهناك فوق البساط .. بينما صاحبة البيت تتفحص قطعة من القماش ، تريد شراءها ، وتسأل عن ثمنها :

- « بكام حتة القماش دي يا أم يوسف ؟ » .
- « اللي تدفعيه يا ست ماري » .
- « 25 قرش كويس ؟ » .
- « وحياتك دي ثمنها علي 28 قرش .. دي ثلاث امتار وربع »
- « حدفع لك 26 قرش » .

وتنهدت « أم يوسف » وقالت :

- « هاتي يا ستي ومبروك عليكي » .

ثم استطردت وهي تلم بضاعتها المبعثرة :

- « بس اعملي معروف ما تقوليش لاحد ، اني بعت لك بالسعر ده .. »

وجمعت « أم يوسف » بضاعتها وربطت «الصرة» وحملتها فوق رأسها .. ثم غادرت البيت .. وعندما وصلت الى مشارف الحارة ، التي يقع فيها بيتها ، طالعها ضوء خافت ، ينبعث من المطبخ ، فأدركت أن ولدها « يوسف » ما زال ينتظر عودتها ، فاطمأن قلبها .. وهدأت سريرتها ..

وما ان فتحت الباب . حتى وصل الى سمعها صوت « يوسف » يرتل في كتاب الصلاة ، آية التوحيد :

- « اسمع يا اسرائيل .. الله الهنا ، الله واحد »

وتذكرت أن ولدها يستعد للاحتفال بسن البلوغ « بر مصوا » ، بعد أسابيع معدودة ، وأنه يذهب الى « الحاخام بنيامين » كل يوم ثلاثاء ، ليلقنه اصول الصلاة ، ويعلمه طريقة وضع « التفلين » الذي يضم آية التوحيد مغلفة في حزام من الجلد ، يشده حول ذراعه وفوق جبينه دلالة على ارتباطه بوصايا الشريعة ، التي يجب أن تكون نصب عينيه دائما .. يذكرها في كل وقت وفي كل مكان.

ووصل اليها صوت « يوسف » يردد في ايمان وخشوع ما ورد في التوراة :

- « فان اطعتم وصاياي ، التي أوصيكم بها اليوم ، فأحببتم الله الهكم ، وعبدتموه من صميم قلوبكم وأرواحكم فان السماء تعطي امطارها في مواسمها .. فتحصد غلتك وتجمع محاصيلك ، وتنبت الارض عشبا لدابتك .. وتأكل انت وتشبع .. »

وتوقف « يوسف » عن التلاوة ، فقد شعر بخطوات امه تقترب .. فقبل كتاب الصلاة واغلقه ، ووضعه في مكانه ... ثم قام يعانق أمه في شوق وحرارة ، بعد أن افتقدها طوال اليوم .. وشعر « يوسف » بالدموع تتساقط من عينيها ، فسألها في قلق :

- « مالك يا ماما ؟ في حد زعلك ؟ »
- « ابدا يا ابني دانا بابكي من فرحتي .. ده اليوم اللي اتمنيته . أشوفك كبرت ولبست « التفلين » وبقيت راجل » .

فقال « يوسف » وهو يربت على رأس أمه في عطف وحنان :

- « أنا عاوزك تكوني راضيه عني » .
- « قلبي وربي راضين عنك يا يوسف يا ابني »

واستغل « يوسف » هذه اللحظات العاطفية ، التي جاشت في صدر أمه فقال مستعطفا : -

- « يعني خلاص حتشتري لي البدلة اللي وعدتيني بها » .

فضمته الام الى صدرها وقالت :

- « البدله والساعة والطليت (وشاح خاص يتشح به المصلون) . وح اعملك كمان حفلة كبيرة تعزم فيها كل أصحابك ، باذن الله . »

فقال « يوسف » مشفقا : -

- « بس ده حيكلفك كتير ، واحنا ما عندناش فلوس » .

قالت « أم يوسف » وهي تجفف دموعها بيديها :

- « ما تحملش هم يا ابني .. ربنا كبير » .

ثم اردفت بصوت يغمره حنان الامومة : -

- « قوم اتعشى لقمة يا حبيبي ، علشان تنام وتصحى بدري لمدرستك »

وعندما غط « يوسف » في نومه ، وسبح في احلام سعيدة ، مع البذلة الجديدة .. والساعة الأنيقة .. والمائدة التي تزخر بأشهى صنوف الطعام والحلوى. . قامت « أم يوسف » ، وفتحت « درجا » جانبيا ، في أسفل « دولابها » الخشبي العتيق ، ودست يدها بين قطع من الثياب القديمة والخرق المهلهلة .. فأخرجت صندوقا صغيرا ، من الخشب المكسو بالقطيفة ، وحلت رباطه ثم رفعت الغطاء ...

كان في داخل الصندوق « اسار » من ذهب على شكل ثعبان .. عيناه ياقوتتان ، تشعان في الظلام ...

وتأملت « أم يوسف » ، الاسار ، في حب واعزاز ، وحنين .. وعادت بها الذكريات الى أربعة عشرة عاما مضت .. يوم التقت بفارس الأحلام .. لم يكن على حصان أبيض .. ولم يحمل اليها باقة من زهور «النرجس» .. بل حمل اليها ، قلبه الابيض .. وشبابه الغض .. و « ورشة » صغيرة للنجارة ، في حارة السقالبة .. كانت هي قد جاوزت الثانية والعشرين بقليل وكان « يعقوب » في السابعة والعشرين من عمره ... وتزوجا .. وقدم لها هذه « الاسورة » الذهبية هدية الزواج .

وعاشت معه عاما كاملا في سعادة غامرة ... كادت ان تنسيها ما قاسته من بؤس وحرمان .. وأنجبت « يوسف » طفلا جميلا ملأ حياتهما نورا وأملا .. وربيعا .. ولكن القدر الفاجع ، كان يكمن خلف النور .. والامل .. والربيع ... وكما أن للزهور عمرا قصيرا .. كذلك كان عمر زوجها الشاب ..

ومات يعقوب في حادث اصطدام اليم .. ووجدت « راحيل » نفسها ترعى طفلا يتيما في المهد .. وضاقت بها وبولدها الدنيا .. ولكنها رفضت أن تتزوج .. وقررت أن تهب حياتها لولدها « يوسف » ، فاشتغلت « خادما » في بيوت بعض الاثرياء ، فترة من الزمن ، ثم حملت « صرة » الملابس فوق رأسها .. تنتقل بها من بيت الى آخر .. تعرض بضاعتها على نساء الحي .. وتربح قروشا زهيدة .. تقيم أودها .. وتكفل ضرورات الحياة لولدها «يوسف». ورغم الفاقة والعوز ، وايام سود مرت بها ، لم تفرط « راحيل » في اسارها الذهبي .. فخبأته في صندوق صغير .. دسته بين ثيابها القديمه .. وكانت كلما هاجت بها الشجون .. عادت اليه .. تتلمس فيه ذكريات اجمل أيام عمرها ..

وها قد أصبح « يوسف » غلاما وسيصبح رجلا بعد أسابيع .. بعد أن يضع « التفلين » حول ذراعه ، وسيحمل وحده مسؤولية أعماله ، امام خالقه. وأغرورقت عيناها بالدموع .. وأعادتها دموعها الى واقعها .. فوضعت « الاسورة » في الصندوق .. وأعادته الى مكانه في خزانة الثياب ...

عندما أوشكت شمس اليوم التالي على المغيب ... وتأهب « منشي ساسون » الصايغ ، لاغلاق دكانه في السكة الجديدة ، والذهاب لاداء صلاة المغرب في كنيس « الامشاطي » في حارة اليهود ، دخلت « أم يوسف » الى الدكان وهي تحمل الاسورة الذهبية ، فقدمتها له وطلبت اليه أن يشتريها ...

كان « منشي ساسون » يعرف « أم يوسف » معرفة وثيقة ، فطالما ترددت على بيتهم لتبيع لزوجته ما تحمله من أقمشة ، و ثياب ، وعطاره ... وكان « منشي » رجلا مؤمنا ، يقيم فرائض الشريعة ويواظب على اداء الصلاة كل يوم .. وكان يحمل بين جنبيه قلبا رحيما .. ونفسا كريمة ... ولذا كان الناس في الحي يحبونه ، ويثقون به ... ويحترمون كلمته ..

وتأمل « منشي ساسون » الاسار الذهبي ، لحظة ثم رفع عينيه وسأل « أم يوسف » :

- « انتي عاوزة تبيعي « الاسورة » دي ليه يا « أم يوسف » ؟ » ..
  فقالت « أم يوسف » وهي تغالب دموعها :
- « ان كان علي انا ، موش عاوزه أفرط فيها لانها ذكرى عزيزه من المرحوم جوزي .. لكن ما اقدرش اكسر بخاطر الولد .. وعدته اني ح اعمله حفله يوم ما يلبس « التفلين » ، واشتري له بدلة جديدة وساعة ... وافرحه . . . »
  و جففت دموعها ثم قالت : -
- « هو انا لي حد غيره يا خواجه « منشي » ده مسكين ويتيم .. والفرح ما دخلش بيتنا من يوم مامات المرحوم ابوه » .

وفتح « منشي » الخزانة .. واخرج رزمة من الأوراق المالية دفعها الى « أم يوسف » وهو يقول :

- « اتفضلي يا « أم يوسف » .. أدي ثمن الاسورة .. خمسين جنيه »
  وأخذت « أم يوسف » النقود ، ودستها في صدرها .. ثم غادرت الدكان وهي تتمتم بكلمات شكر مبهمة .. والفرحة تضيء في عينيها ..

وتأمل السيد « منشي » الاسار النحاسي ، المطلي بقشرة من ذهب .. والذي لا يساوي أكثر من قروش معدودة .. ثم هز رأسه ، ووضعه في جيبه .. وأغلق الدكان .. وذهب ليؤدي صلاة المغرب في الكنيس القريب .. وعلى وجهه ابتسامة تنم عن الرضاء .

الأميرة

دكان صغير ، في درب الفرن . على الحائط بعض رفوف من خشب قديم ، رصت فوقها ، علب من صفيح ، واكياس من قماش ، وبعض مجلدات قديمة يعلوها الغبار .. وفي وسط الدكان « طاحونة » يدوية ، مثبتة فوق قاعدة من الخشب ، يجلس اليها « الياهو » طوال ساعات النهار ، يديرها بذراعيه القويتين .. وبين الحين والحين ، يتوقف قليلا ريثما يدفع باصابعه « حبوب البن » ، الى ثقب المحور الذي تدور عليه « التروس » الطاحنة . فاذا ما فرغ وعاء الطاحونة من الحبوب ، مد الرجل يده نحو اسفل القاعدة ، فجذب « درجا » خشبيا وافرغ ما فيه من « بن مطحون » في العلبة الخاصة به .. ثم احكم وضع الغطاء فوقها ، حتى لا يتعرض « البن » الطازج للهواء ، فتفسد نكهته ..

كان « الياهو » يعرف كيف يتقن صنعته ، ويحرص على كسب رضاء « زبائنه » ، مما جعله موضع ثقة أهل الحي .. ولا عجب .. فالرجل يقوم بعمله هذا منذ اكثر من عشرين عاما ، فاجاده واتقنه ، الى ان اصبح يطحن « رطلا » من البن ، دون أن يسقط منه « حبة » واحدة .. رغم انه كفيف البصر .

ولم يكن « الياهو » يحمل « عصا » ليستعين بها في سيره ، كغيره من المكفوفين .. بل كان يتخذ الجانب الايمن من الطريق ، ويسير مرفوع الهامة ، شاخص الوجه الى الامام كما يسير المبصرون . فاذا ما سمع صوت « عربة » او « سيارة » تقترب منه ، توقف عن السير حتى تمر به ، ثم يواصل سيره ، ثابت الخطى .. لا تكاد الابتسامة تفارق شفتيه ...

وكان الرجل يتعرف على الناس من أصواتهم .. بل كان في مقدوره أن يميز بعضهم من مجرد خطواتهم ، او طريقة حديثهم .. وكان اذا سمع صوت امرأة تتحدث في الطريق ، ادار وجهه ناحية الصوت وناداها باسمها ثم قال لها معاتبا : -

- « ماذا حدث يا ست فلانه ؟ هل انقطعتم عن شرب القهوة ؟ شهران مضيا ولم تطأ قدماك دكاني ؟ » .
وكثيرا ما كان « الياهو » يحمل علبة البن المطحون بنفسه الى بيوت اصحابها فهو يعرف حوارى الحي وازقته جميعا .. بل ويعرف الطريق الى كل بيت فيها ..

ولد « الياهو » في حارة اليهود ، قبل خمسين عاما وشاءت الاقدار أن يفقد البصر وهو طفل في الخامسة من عمره ، اثر التهاب صديدي أهمل في علاجه ... ولما بلغ السابعة من عمره ، الحقوه بمدرسة للمكفوفين ، فتعلم فيها كيف يستخدم أصابع يديه ليتعرف على الاشياء ، ولينقل الى مخيلته صورها وأشكالها المختلفة .. كما تعلم القراءة والكتابة على طريقة « برايل » ..

وشب « الياهو » كفيف البصر ، يتنقل من عمل يدوي الى آخر ، حتى استقر به المقام اخيرا في هذا الدكان فجعله « مطحنا » للبن ، يكتسب منه قوته بشق النفس ...

وكان الرجل يحمل بين جنبيه نفسا عزيزة أبية .. فعلى الرغم من فقره .. وعوزه .. وفقدان بصره ، كان يرفض ان يتلقى صدقة أو احسانا من أحد . وكان كبرياؤه يأبى عليه أن يمد يده للمؤسسات الخيرية ، ليتقاضى منها « المنحة » الشهرية التي كانت تخصصها من أموال « الوقف » ، للفقراء ، والعاجزين من امثاله .. ولعل الاعجب من ذلك أنه كان يرفض المعونة حتى من والدتي ، وهي أخته .. شقيقته ...

هكذا كان شأن خالي « الياهو » ، يوم عرفته وأنا طفل في السابعة من عمري ، في أولى سنوات دراستي الابتدائية .. كانت علاقتي به لا تتعدى أن أمر بدكانه كل يوم ، وأنا في طريقي الى المدرسة ، فالقي عليه بتحية الصباح ، ثم اسأله السؤال التقليدي :

- « هل من خدمة أؤديها لك يا خالي ؟ » .
وكنت دائما أتلقى نفس الاجابة :
- « لا يا بني ، لست في حاجة الى شيء .. اجتهد انت في دروسك .. وأنا عند وعدي لك .. اذا حصلت على شهادة الدراسة الابتدائية ، فسأشتري لك هدية ثمينة »

ولم تكن الهدية الموعودة تعنيني بقدر ما كان يعنيني أن أمد يدي خلسة الى وعاء الطاحونة ، فالتقط بضع حبات من حبوب البن .. اطحنها بأسناني ، وأمتص مرارتها المحببة ، في نشوة « الكييف » ، وأنا أحث الخطى نحو مدرستي التي لم تكن تبعد كثيرا عن الدكان ..

كان « الياهو » يسكن في حجرة صغيرة ، في بناء قديم ، في « درب الفرن » يطلقون عليه اسم « الملجأ ». وكان هذا « الملجأ » يتكون من طابقين ، ويضم حوالي عشرين غرفة ، شيدت خصيصا قبل اربعين عاما ، لتأوي الفقراء والمعوزين من سكان الحي .. وكان البناء قديما ومتأكلا .. تملأ الشقوق جدرانه المشبعة بالرطوبة ، ويكاد يتداعى في كل لحظة .. ومع ذلك فقد ظل « سكانه » يأوون الى حجراته البالية ، يقضون فيها ليلهم ، حتى اذا طلع النهار ، خرج كل منهم يسعى وراء لقمة العيش .

وحدث يوما ما توقعه الناس .. كان ذلك في ظهيرة أحد الايام ، عندما سمع سكان الحي دويا هائلا ، تصحبه سحابة من غبار كثيف تكاد تسد الرؤيا وتخنق الانفاس ... وصاح « ابو لحاف » وهو جالس عند باب دكان « الياهو » :

- « يا خفي الالطاف نجنا مما تخاف .. يبدو أن القيامة قامت يا « عم الياهو » .
وتوقف « الياهو » عن طحن البن ، وارهف اذنيه برهة ثم قال :
- « انه « الملجأ » . لقد تداعى الملعون اخيرا ... » ثم اردف بنبرة يشوبها القلق : ـ « لقد شعرت به يهتز هذا الصباح ، فنصحت السكان بمغادرته في الحال .. كل ما ارجوه أن لا يكون أحد قد أصيب بأذى .. »

وكأنما ارادت السماء أن تحقق رجاء « الياهو » فلم يصب أحد من سكان الملجأ بأذى اذ تصادف أن كانوا جميعا خارج المبنى ، عندما انهار فجأة وأصبح كومة من الانقاض ، والاتربة ، والحجارة ..

واجتمع مجلس الطائفة اليهودية على عجل .. وأصدر بيانا ، دعا فيه سكان الحي ، الى فتح بيوتهم ، وايواء عشرات الفقراء الذين أصبحوا بلا مأوى .. الى ان يتم ايجاد مكان آخر يؤويهم .

وكان طبيعيا أن تستضيف والدتي أخاها « الياهو » في بيتنا وأن تخصص له غرفة من غرف البيت الاربعة. وكانت غرفة « خالي » تجاور غرفتي .. ورغم ذلك كنت لا أكاد أشعر بوجوده في بيتنا ، فقد تعود أن يغادر البيت كل صباح في ساعة مبكرة ، وقبل أن أفيق أنا من نومي ، وان يعود الى البيت بعد أن اكون قد أويت الى فراشي ...

وفي احدى الليالي استيقظت على صوت عزف وغناء صادر من الشرفة الكبيرة التي تصل بين غرفتي وغرفة خالي ، ودفعني الفضول الى دخول الشرفة ، فرأيت خالي بجلبابه الأبيض الفضفاض، يتربع فوق قطعة من « السجاد » .. ويسند ظهره الى الحائط ، بينما ضم الى صدره « عودا » اخذ يداعب اوتاره بأنامله ، ويردد بصوت عذب أغنية « قمر له ليالي » ..

ووقفت برهة انصت الى الغناء مأخوذا ، فقد كانت هذه أول مرة ارى فيها « خالي » يعزف على « العود » واسمعه يغني .. ويبدو انه شعر بوجودي ، فقد توقف فجأة عن الغناء ، وسأل بصوت خافت ، حاول أن يجعله مرحا :

- « من هناك ؟ »

فقلت وأنا ما زلت ماخوذا بما اسمع وارى :

- « أنا يا خالي » .

فسألني متوجسا :

- « هل أيقظك صوت غنائي ؟ »

فقلت كاذبا حتى لا اضايقه : -

- « لا أبدا .. لقد استيقظت من تلقاء نفسي ، وأنا اشعر بالعطش »

فانفرجت أساريره ، وقال وهو يناولني « قلة » الماء التي كان يحرص على وضعها في الشرفة ليبرد ماؤها : -

- « خذ واشرب من قلتي .. فماؤها معطر بماء الزهر » .

ولم أكن أشعر بالظما .. ولكنني تناولت جرعة من مائها ، وأعدتها اليه فشرب منها بصوت مسموع ، ثم تجشأ .. وقال وهو يعيد القله الى مكانها : -

- « والان عد الى فراشك فعليك غدا أن تقول مبكرا لمدرستك »

فقلت له مراوغا : -

- « ظننت أن أحدهم ترك « الراديو » مفتوحا ، وان الصوت ، هو صوت « عبد الوهاب » .

فقال منتشيا : -

- « هل اعجبك الغناء ؟ » ..

قلت :

- « لم أكن أعرف أنك تجيد الغناء يا خالي ؟ »
- « احببته منذ كنت في سنك . »
- « و اين تعلمت العزف على العود ؟ »

صمت خالي برهة ، ثم تنهد وقال :

- « قصة طويلة عريضة .. »

فقلت ، والفضول يدفع عن عيني آخر أثر من آثار النوم :

- « أريد أن أسمعها .. »

فقال :

- « ولكن الوقت متأخر . . والقصة طويلة . . »

فقلت متوسلا : -

- « انني جد مشتاق الى سماعها .. »

وارتسمت على شفتيه ابتسامة حالمة ، ومر باصابعه على اوتار « عوده » وكأنما يستوحي من نغماته ذكريات حبيبة الى نفسه وقلبه ، ثم وضع « العود » جانبا ، واخرج من جيبه علبة « سجائر » تناول منها واحدة أشعلها .. وأطلق الدخان في الهواء مصحوبا بتنهدة المغلوب على امره ثم قال : -

- « هي التي علمتني العزف على العود يا بني . »

- « من هي ؟ . »
- « اميرتي .. »
- « اي اميرة ؟ »
- « التي أحبها .. وتحبني »

فقلت في دهشة :

- « هل هناك أميرة تحبك ؟ »
- « وتستقبلني كل يوم في قصرها الكبير ..... »
- « ومتى تذهب اليها ؟ »
- « بعد أن أنتهى من عملي في الدكان ، واستحم واستبدل ملابسي ... »

وعدت أسأل :

- « وكيف تذهب الى قصرها الكبير ؟ »
- « ينتظرني سائق سيارتها الخاصة ، عند مدخل الحارة ، كل مساء في ساعة معينة ، ويأخذني اليها . »
- « و اين يقع قصرها ؟ »
- « في مكان ما فوق ربوة عالية ، تشرف على النيل ، ولا يصل اليها احد .. »
- « وهل هي جميلة حقا ؟ »
- « تبارك الرحمن في صنعه .. لقد شاهدت كثيرا من النساء ، ولكن لم تقع عيني على واحدة في مثل جمالها وسحرها »

وسكت « خالي » برهة ، ثم أردف يقول ، وكأنما حاول أن يدفع ما ساورني من شكوك :

- « ان « أميرتي » سيدة كريمة ، وقد حدثتها عنك كثيرا .. ولما علمت انك مجد في دروسك ، ارسلت اليك معي هذا الكيس المليء بالحلوى ... »

ودس « خالي » يده في جيبه واخرج كيسا من الورق الملون وضعه في يدي وقال :

- « افتحه ، لتتأكد بنفسك .. »

وفتحت الكيس ، فاذا به مليء « بالملبس » و « قطع الشيكولاته » .. وعقدت الدهشة لساني ، فقد كانت المفاجأة أكبر من أن يتحملها عقل طفل في مثل سني .. ونظرت الى خالي بين مصدق ومكذب .. ولكن سرعان ما تبخرت شكوكي ، مع أول قطعة من الشيكولاته ذابت في فمي .

وبدات اصدق كل ما يرويه لي « خالي » عن أميرته الحسناء ، التي تجيد الغناء والعزف ، والرقص .. والتي حينما ترقص وتغني ، تبعثر حولها الزهور .. واللؤلؤ والمرجان ، والزمرد .. وقطع « الشيكولاته » .. و « الملبس » ..

وفي كل ليلة ، وبعد أن يأوي أهل البيت الى غرفهم كنت أتسلل من غرفتي الى الشرفه حيث يجلس « خالي الياهو » فينقلني الى عالمه السحري باسلوبه الشيق ... وصوته العميق ، الذي كان يرتفع وينخفض تبعا لتطور الاحداث .. وهو حين يسرد قصص « أميرته » الجميلة لا يهمل صغيرة أو كبيرة .. يصف لك الاشياء فتراها بعينيك .. و يحدثك عن الاشخاص فتشعر وكأنك تعرفهم من قبل ..

اما اذا نزع الوشاح عن وجه « أميرته » فكان يطالعك بدر مضيء تزينه عينان سوداوان في عمق الليل تحرسهما رموش كحلاء .. ينام تحتها خدان من ورد وتفاح .. ومسك .. و عنبر .. اذا ابتسمت ضحكت الدنيا .. وان بكت امطرت السماء.

وكنت اصغي الى قصصه ، بكل ما في الطفولة من فضول واشتياق وخيال .. ولم تعد قطع الحلوى وحدها تغريني على الانصات اليه ، فقد اصبحت اقبل على حكاياته كما يقبل « شهريار » الملك على قصص « شهرزاد ».

ومرت تسعة شهور ، وتم بناء « ملجأ » جديد على نفس الأرض التي كان مقاما عليها « الملجأ » القديم .. وانتقل خالي « الياهو » الى السكني فيه ، على الرغم من الحاح والدي عليه في البقاء معنا ... لقد أصر « الياهو » على أن يعيش في « الملجأ » حتى لا يكون عبئا على أحد .. حتى ولو كان من اقرب الناس اليه .

وحزنت على فراق «خالي» ، بقدر ما حزنت لحرماني من المتعة التي كنت اجدها في الاصغاء الى قصص « أميرته » .

وبعد عامين من مغادرته بيتنا ، أصيب خالي بشلل مفاجيء لم يمهله سوى ايام معدودة . وخرجت العائلة تشيع جثمانه الى مثواه الاخير ... وسار خلف النعش عدد كبير من سكان الحي ممن يعرفون « الياهو » ، أو ربطتهم به صلة مودة وصداقة ...

وما أن وصلنا الى ساحة « الكنيس » حيث تقام عادة صلاة الجنائز ، حتى رأيت سيارة روز رويز سوداء ، تقف عند مدخل الساحة .. وتخرج منها سيدة ممشوقة القوام .. ترتدي ثيابا أنيقة ، تدل على الثراء ، وتضع على وجهها وشاحا من الحرير الأسود ...

وتقدمت السيدة ، يتبعها سائق سيارتها ، ببذلته « الكحلي » ذات الازرار النحاسية اللامعة ، وهو يحمل اكليلا من الزهور البيضاء .. . وكأنما كان وقع المفاجأة على المشيعيين ، اقوى من الفضول ، فخرست الالسن . . وساد المكان صمت غريب .

ووضعت السيدة الاكليل فوق النعش .. ووقفت لحظة مطرقة الرأس . ثم رفعت الوشاح عن وجهها ، لتمسح دمعة ترقرقت في عينيها ..

ورأيت بدرا مضيئا ، تزينه عينان سوداوان في عمق الليل تحرسهما رموش « كحلاء » ينام تحتهما خدان من ورد وتفاح .. ورأيت السماء تبكي ..

وعادت السيدة الى سيارتها .. و انطلقت السيارة تغادر الساحة وعيون المشيعين تتبعها في دهشة وفضول. وارتفع الهمس بين المشيعين وتساءل الناس :

- « ترى من تكون هذه السيدة ؟ »
أن أحدا لم يعرفها ... أما أنا فقد عرفتها ..